الفلاكة والمفلوكون

تأليف
الإمام أحمد بن علي الدلجي

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفلاكة والمفلوكون

تأليف

الإمام أحمد بن علي الدلجي

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن يستحق الحمد لذاته وهويته، ويستوجب الشكر لكمال الآهيته، وتتقاصر الأوهام عن دقائق أقداره وأقضيته، وتتحير الأفهام في لطائف آلائه ورأفته، وتدهش العقول في كمال مصنوعاته وحكمته، وتقف الأفكار حيرى في كبريائه وقاهريته، الخلق مقهورون محجوجون بساطع حجته، والقلوب في تصرفه يقلبها كيف يشاء على وفق مشيئته، ما من شيء إلّا وفي خزائنه غير معدوم، ﴿وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾[1]. ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[2]. على علمه الخير والشر، والنفع والضر، والحركات والسكون، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كل في فلك يسبحون. جعل لكل أجل كتاباً، وللمسببات أسباباً، وربط المسببات بالأسباب وهو خالق الأسباب والمسببات، وأوقع الشبع عقيب الأكل دائماً على العادة وهو غني عن العادات، وهب العقل فيسر به سواء السبيل، وركب الخرق[3] فنقص به الحظ من التحصيل، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنه على صراط مستقيم ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[4]. أغنى وأقنى، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا. ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[5]. وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو العليم الحكيم،

(١) سورة: الحجر، الآية: ٢١.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) الخرق بالضم الحمق، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور. اهـ من القاموس.

(٤) سورة: يس، الآية: ٨٢.

(٥) سورة: الأنبياء، الآية: ٢٣.

يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدَّ لهم أشد عذاب أليم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الهادي بإذنه إلى صراط مستقيم: ﴿عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾(١) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذويه، وسائر أتباعه وأوليائه ومحبيه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فقد منحتكم يا معشر إخواني المفاليك كتاباً بديع المثال، منسوجاً على غير منوال، مخترعاً من غير سابقة مثال، مسلاة وتمثلاً، وحكمة وعللاً، تتخذونه(٢) مفاكهة وأمثالاً، وتتصرفون به في ظنونكم رداً وأعمالاً، وتنزعون به أيديكم من ربقة التقليد انتزاعاً، وترفعون به نحو الأغراض والمقاصد شراعاً. وكان المحرك لهذه الكتابة أن سائلاً سأل عن السبب في علية الفلاكة والإهمال على نوع الإنسان، فصادف مني نشاطاً للكلام في ذلك نفثة مصدور وضربة موتور، وناراً ساكنة ألقمها حطباً، ودعوة وافقت إرادة ومطلباً، وأنا أعتذر عما لا يوافق الغرض ولا يصيب الغرض، وعن استبدال الجوهر بالعرض، بأن استشكاف أسرار الدقائق، واستشفاف أنوار الحقائق مما يتعذر أو يتعسر مع العوائق البدنية والصوارف النفسانية، ولو كان الخاطر صقيلاً باتراً، ومواد الكلام بحراً زاخراً، فكيف إذا كانت الفكرة كليلة، والبضاعة من العلم قليلة، والصوارف متناصرة، والبواعث متقاصرة، والشواغل إلى حد المنع من معاودة التنقيح والتهذيب، والوقت ضيق عن اختيار الألفاظ وجودة الترتيب، والكتب مفقودة أو مستعارة، والهموم تشن غارة بعد غارة، هذا مع أن المخترعات التي لم تسبق بتصنيف ولا بتدوين وترصيف، لا تبلغ بها الفائدة نصابها، وتفتح للمعاذير أبوابها، ومن الله أستمد العصمة من وصمة الغلط، وغوائل الأوهام وبوادر السقط، وأن يوفقنا لإخلاص النية، وإحسان الطوية.

ورتبت مقصود هذا الجمع في فصول: **الفصل الأول** - في تحقيق معنى المفلوك الذي قصر عليه هذا الكتاب - **الفصل الثاني** - في خلق الأعمال وبيان أن لا حجة

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) هو مفعلة من السلوان، أي يسليك عن الالتفات إلى متاعب هذه الحياة. وقوله: وتمثلاً في القاموس تمثل بالشيء ضربه مثلاً، وإلى هذا المعنى والذي قبله يشير قوله تتخذونه. الخ.

للمفلوك في التعلق بالقضاء والقدر ـ **الفصل الثالث** ـ في أن التوكل لا ينافي التعلق بالأسباب وأن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين ـ **الفصل الرابع** ـ في الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها ـ **الفصل الخامس** ـ في أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب في ذلك ـ **الفصل السادس** ـ في مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة ليس إلّا بعد كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف وبيان السبب في ذلك ـ **الفصل السابع** ـ في علية الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان السبب في ذلك ـ **الفصل الثامن** ـ في أن الفلاكة المالية تستلزم الفلاكة الحالية ـ **الفصل التاسع** ـ في أن التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة في الاعتذار إليهم وإظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضى الطرق بهم إلى مقاصدهم وبيان الدليل على ذلك ـ **الفصل العاشر** ـ في تراجم العلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل ـ **الفصل الحادي عشر** ـ في مباحث تتعلق بالفصل قبله ومن المباحث النكبات الحاصلة للأعيان ـ **الفصل الثاني عشر** ـ في أشعار المفلوكين أو من في معناهم وما فيها من مقاصد شتى وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة ـ **الفصل الثالث عشر** ـ في وصايا يستضاء بها في ظلمات الفلاكة نختم به الكتاب.

الفصل الأول

في تحقيق معنى المفلوك

هذه اللفظة تلقيناها من أفاضل العجم، ويريدون بها بشهادة مـواقع الاستعمـال الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره، وليس في صحاح الجوهري ولا في القـاموس المحيط في هـذه المادة مـا يصلح لهذا المعنى إلاّ قـول صـاحب القاموس: فلك تفليكاً إذا لج في الأمر فإنه يمكن أن يجعل مصححاً لهذا الاستعمال. وبيانه أن اللجاج لازم الإملاق فإنه يلزم من الإملاق وعدم الحظ اللجاج، فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، وهذا مع ما فيه من التكلف مردود بأن فعل تفعيلاً لا يصح أن يكون اسم المفعول منه بزنة مفعول، والذي يظهر أنه مأخـوذ من الفلك الذي هو جسم محيط بالعالم فكأن الفلك يعارض غير المحظوظ في مراده ويدافعـه عنه. فإن قيل هذا فاسد لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلأن الفلك اسم جامد لا يصح أن يشتق منه صيغة مفعول ولا يصح اشتقاقه من الفلك لما فيه من معنى الاستـدارة لأن الفلاكة بمعنى عدم الحظ ليست من معنى الاستدارة في شيء، ولا على المجاز على معنى أن عدم الحظ لما استلزم الحركة والاضطراب والجولان كان إطلاقهـا وإرادته من بـاب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم لأن اللازم لعدم الحظ هو مطلق الحركة والاضطراب لا الحركة المقيدة بالاستدارة، وأما المعنى فإن اشتقاقه من الفلك على معنى أن الفلك يعارضه في مراده ويدافعه عنه غير مستقيم لما تقرر في الكتب الكلامية أن الله تعالى هو خالق كل شيء ـ فالجواب عن الأول: أن اشتقاق المفلوك من الفلك غير ممتنع، فقد قالوا: رأسته بمعنى ضـربت رأسه، ورأيتـه بمعنى أصبت رئته، وأبلغ من ذلـك اشتقاقهم من الحروف كما في اشتقاق أحاشي من حاشى الحرفية الاستثنائية في أحد التخريجين في قول من قال:

* ولا أحاشي من الأقوام من أحد *

وأبلغ من ذلك اشتقاقهم من لفظ الجملة كالحوقلة والبسملة والهيللة ـ وعن الثاني: أن ذلك من قبيل المجاز العقلي وهو نسبة الشيء إلى زمانه مجازاً تشبيهاً للتلبس الغير الفاعلي بالتلبس الفاعلي، ويشهد لذلك ما قاله العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم: «الشؤم في ثلاثة ـ أو إن يكن الشؤم ففي ثلاثة ـ المرأة والدار والفرس» على اختلاف الروايتين جزماً وتعليقاً من أن ذلك على المجاز والاتساع، أي قد يحصل الشؤم مقارناً لها وعندها لا أنها هي في أنفسها مما توجب الشؤم، فقد تكون الدار قد قضى الله تعالى أن يميت فيها خلقاً من عباده كما يقدر ذلك في البلد بالطاعون والوباء، فيضاف ذلك إلى المكان مجازاً والله خلقه عنده وقدره، فقد صح بهذا التقرير جواز أخذ المفلوك من الفلك على معنى أنه الذي يعارضه الفلك في مراده على جهة التجوز. ولو سلم أن السعود والنحوس لا تدور مع حركات الأفلاك دائماً لم يكن ذلك قادحاً في صحة التجوز لأن إضافة الفعل إلى زمانه مجازاً لا تحتاج إلى كون القضية دائمة كما في قولهم: نهاره صائم وليله قائم وأمثاله مما لا يحصى. على أنّا نقول اللغة اصطلاحية على قول، والألفاظ العلمية التي يدير عليها أهل كل علم علمهم كالرفع والنصب للنحاة مثلاً اصطلاحية إجماعاً ووفاقاً، ووجه اختيار لفظ الفلاكة على الفاقة والإملاق والفقر ونحوها أن هذه الألفاظ الثلاثة ونحوها نص صريح في مدلولها بخلاف لفظة الفلاكة والمفلوك فإنه يتولد منهما بمعونة القرائن معان لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها.

الفصل الثاني

في خلق الأعمال وما يتعلق به

أما مذهب إمام الحرمين وجمهور الفلاسفة وأبي الحسين البصري من المعتزلة، فهو أن الله تعالى يوجد للعبد القدرة والإرادة، ثم تلك القدرة والإرادة يوجبان وجود المقدور، ومذهب أكثر المعتزلة أن القدرة الحادثة موجبة لحدوث مقدورها، وأنه لا تأثير للقدرة القديمة فيه. ومذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه والقاضي أبي بكر الباقلاني في أحد أقواله والنجار من المعتزلة أنه لا تأثير للقدرة الحادثة في حدوث مقدورها، ولا في صفة من صفاته، وإن أجرى الله العادة بخلق مقدورها مقارناً لها فيكون الفعل خلقاً من الله إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد لوقوعه مقارناً لقدرته، واختلف في تفسير الكسب على قولين أحدهما أن ذات الفعل تحصل بقدرة الله تعالى، وكونه طاعة ومعصية كما في لطم اليتيم تأديباً وإيذاء صفات له تابعة لوجوده يحصل بقدرة العبد لأن مفهوم الفعل أعم من خصوص كونه قياماً وقعوداً وما به التمايز غير ما به الاتحاد، فما به التمايز هو الكسب صرح بذلك الأبهري في شرح المواقف وبعض شراح الطوالع. ولكن المشهور إيراده مذهباً للقاضي أبي بكر الباقلاني وأخذاً من أقواله ـ القول الثاني ـ وهو المشهور في تفسير الكسب أنه تصميم العزم على الفعل، على معنى أن الله تعالى أجرى عادته بأن العبد إذا صمم العزم على المعصية يخلق الله تعالى فعل المعصية فيه، فالعبد وإن لم يكن موجداً إلا أنه كالموجد. واستدلت الأشاعرة على مطلوبهم بمسالك كثيرة ضعفها الآمدي في أبكار الأفكار، ولم يرتض منها إلا مسلكين أخصرهما لو كان العبد خالقاً لأفعال نفسه للزم وجود خالق غير الله، ووجود خالق غير الله محال ويلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم.

وأما المعتزلة فاستدلوا على مذهبهم بوجوه كثيرة مرجعها إلى أمر واحد هو أنه لولا استقلال العبد بالفعل لبطل مدح العباد وذمهم على الطاعات والمعاصي، إذ لا يمدح زيد ولا يذم بما يفعله عمرو من طاعة أو معصية، ولا ارتفع الثواب والعقاب لأن العبد

إذا لم يكن موجداً لفعله لم يستحق ثواباً ولا عقاباً وكان الله مبتدئاً بالثواب والعقاب من غير استحقاق من العبد لذلك، ولو كان كذلك لجاز عقاب الأنبياء وثواب الكفرة الأغبياء ولم يبق لأحد وثوق بعمله، ولا يخفى ما في ذلك من تشويش الدين والخبط في الشريعة، وأيضاً لولا الاستقلال لبطل التكليف بالأوامر والنواهي والتأديب لأنه إذا لم يكن العبد موجداً لأفعاله فكيف يصح عقلاً أن يقال: ائت بفعل الإيمان والصلاة والزكاة، ولا تأت بالكفر وشرب الخمر والزنا لأنه تكليف بما لا يطاق، ولبطل أيضاً فائدة بعث الأنبياء وهي دعوة المكلفين إلى فعل الطاعات وزجرهم عن المعاصي إذا لم يصدر منهم عمل فيلزم التكليف بما لا يطاق.

والجواب بمنع الملازمات ـ إما في المدح والذم فلأنهما باعتبار المحلية لا باعتبار الفاعلية إذ يجوز أن يمدح الشيء لحسنه وسلامته، ويذم لقبحه وعاهته، فتمدح الجوهرة لحسنها وصفائها ونقائها من العيوب وأما الثواب والعقاب فلأن عادة الله جارية على خلق الثواب عقيب خلق الطاعات، وعلى خلق العقاب عقيب خلق المعاصي لا أن العبد يوجد الطاعة والمعصية وهما يوجبانهما، كما يخلق الشبع عقيب خلق الأكل والاحتراق عقيب مسيس النار وإن قدر على أن يخلقها ابتداء. وقولهم: لو لم يكن الثواب جزاء فعل العبد لجاز عقاب الأنبياء وثواب الكفرة قلنا مسلم ولكن جوازاً تحيله العادة أو لا تحيله العادة، الأول مسلم والثاني ممنوع فلا يشك في انتفاء ما ذكروه وإن كان جائزاً عقلاً. وأما حديث التكليف والتأديب والبعثة والدعوة فلأنها قد تكون دواعي الفعل وأجرى الله العادة بترتيب آثارها عليها.

وتخليصه أن الأشاعرة لما وردت عليهم هذه الشبهة ورأوا أيضاً تفرقة بديهية بين ما نزاوله من الأفعال الاختيارية، ومن حركة المسحور على وجهه والمرتعش، وذادهم ومنعهم البرهان الدال على أن الله خالق كل شيء عن إضافة الفعل إلى اختيار العبد مطلقاً، جمعوا بين الأمرين وأثبتوا الكسب على التفسيرين السابقين، فإما أن يقال كون خصوص الفعل من كونه طاعة ومعصية واقعاً بقدرة العبد كاف في تكليفه وتأديبه ودعوته، وإما أن يقال العبد إذا صمم العزم على المعصية يخلق الله فعل المعصية فيه، وإذا صمم على الطاعة يخلق الله فعل الطاعة فيه، وعلى هذا يكون العبد كالموجد لفعله وان لم يكن موجداً، وهذا القدر كاف في التكليف والتأديب والدعوة، وهذا أيضاً مشكل لأن الدواعي والتصميم فعل من الأفعال مخلوق لله تعالى فلا مدخل

للعبد أصلاً. ووجه الاعتذار عن هذا الإشكال كما قرره الأصفهاني أن الله تعالى يوجد القدرة والإرادة في العبد ويجعلهما بحيث لهما مدخل في الفعل، لا بأن تكون القدرة والإرادة لذاتهما اقتضت أن لهما مدخلاً في الفعل، بل كونهما بحيث لهما مدخل بخلق الله إياهما على هذا الوجه ثم يقع الفعل بهما، فإن جميع المخلوقات يخلق الله بعضها بلا واسطة وبعضها بوساطة أسباب لا بأن تكون تلك الوسائط والأسباب لذاتها اقتضت أن يكون لها مدخل في وجود المسببات، بل بأن خلقها الله تعالى بحيث لها مدخل، فتكون الأفعال الاختيارية المنسوبة الى العبد مخلوقة لله تعالى أو مقدورة للعبد بقدرة خلقها الله تعالى في العبد وجعلها بحيث لها مدخل في الفعل.

والغرض من هذا الفصل إقامة الحجة على المفلوكين وقطع معاذيرهم وإلجامهم عن التعلق بالقضاء والقدر، وأنه متى نعيت إليهم فلاكتهم أو نودي عليهم بها كان ذلك متجهاً مخيلاً لأنهم إما فاعلوها استقلالاً أو مشاركة وإما بالمحلية والمدخلية على ما سبق تحقيقه ـ ولو سلم أن ذلك من باب القضاء والقدر الصرف، أو فرضت فلاكة سماوية صرفة، فكلمات العلماء في مجاري أبحاثهم طافحة بأن القضاء والقدر لا يحتج به. وذلك لما روى مسلم في صحيحه «أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: اجتمع آدم مع موسى فقال له موسى: يا آدم أنت خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى» قال النووي في شرحه: فإن قلت فإن العاصي منا لو قال هذه المعصية قدرها الله عليّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وإن كان صادقاً فيما قاله فالجواب أن هذا العاصي باق في دار التكليف جار عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر فلم يكن في القول المذكور له فائدة بل فيه ايذاء وتخجيل انتهى. فانظر كيف اعترف بحقية السؤال واعتذر في الجواب بأن الحديث ليس منه، والقضاء والقدر وإن لم يحتج به في الدنيا فجائز أن يحتج به الأنبياء في الآخرة لعلو مقامهم عن الإيذاء والتخجيل، وإذا ثبت أن القضاء والقدر لا يحتج به في المعاصي فغيرها كذلك إذ لا قائل بالفرق أو المقايسة لأن العلة التي اقتضت المنع من الاحتجاج بالقدر في المعاصي مطردة في غيرها من إقداره تعالى بالمناسبة والإخالة.

الفصل الثالث

(في أن التوكل لا ينافي التعلق بالأسباب، وأن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين)

ومقصود هذا الفصل يحصل بالكلام على مقامين: ـ المقام الأول ـ مقام التوكل، **التوكل في اللغة** عبارة عن إظهار العجز والاعتماد على الغير، وخصّ بما يكون الاعتماد فيه على الله تعالى. **وفي الاصطلاح** عبارة عن دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر في جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الأسباب الطبيعية، ودوام حسن الملاحظة يجامع التعلّق بالأسباب ولا ينافيها، وحينئذ فحركة العبد ببدنه أو بتدبيره إما لجلب نفع كالكسب، أو حفظه كالادخار، أو دفع ضر كمقاومة الصائل، أو قطعه كالتداوي. فأما جلب المنافع ودفع المضار ورفعها فإفضاء الأسباب إليه إما مقطوع به وهي الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله تعالى ارتباطاً مطرداً، وإما مظنون ظناً يوثق به وهي المسببات التي ارتبطت بالأسباب ارتباطاً أكثرياً بحيث لا يحصل بدونها إلّا نادراً وإما موهوم وهماً لا يوثق به ولا يطمأن له.

فأما المقطوع بإفضائه والمظنون إفضاؤه من الجلب والدفع والرفع كمد اليد إلى الطعام الحاضر، واستصحاب الزاد في السفر في البراري المقفرة، والمتنحي عن مجرى السيل وعن مفترس الأسد، وترك النوم تحت الجدار المائل، وإغلاق الباب، وعقل البعير، والتداوي بالأمور المجربة فكل ذلك لا ينافي التوكل، وإهماله مراغمة لحكمة الله تعالى في نصب الأسباب وعدم الاكتفاء بالقدرة المجردة، وجهل بسنّة الله وعادته، فمن ترك الوقاع ومد اليد إلى الطعام وابتلعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله وانتظر أن يحصل له ولد كما ولدت مريم عليها السلام، أو أن يخلق الله له الشبع بغير أكل، أو يرسل ملكاً فيمضغه ويدخله في فيه فهو مجنون جاهل بالشريعة لأن الاكتساب لإحياء النفس واجب، والاكتساب لنفقة الزوجة والبعض أصلاً كان أو فرعاً في الثالث

الصحيح واجب أيضاً، ولأن إهمال العيال حرام، وإهلاك النفس جوعاً حرام، وإغلاق الباب عليه وسد طريق العلم به وامتحان قدرة الأرزاق حرام، وتصبير النفس على الجوع لمن لا تطيق نفسه ذلك وتضطرب عليه حرام كما قاله على الجوع مدة فإنه لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل انتهى. وقد قال ﷺ للأعرابي لما أهمل بعيره وقال: توكلت على الله «اعقلها وتوكل على الله» وقال تعالى: ﴿خذوا حذركم﴾[1] وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾[2] وقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾[3] وقال لموسى: ﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾[4] والتحصن بالليل لإخفائهم عن عين العدو نوع تسبب، واختفاء رسول الله ﷺ في الغار عن عين الأعداء للضرر وأخذ السلاح في الصلاة سبب مظنون ـ وأما الموهوم إفضاؤه دفعاً وتحصيلاً كالرقية والكي والاستقصاء في حيل المعيشة والتدبيرات الدقيقة من وجوه الاكتساب فذلك كله مناف للتوكل لما أنه من ثمرات الحرص وحب الدنيا، لا لمنافاته التوكل بالذات، لأنا قد قدمنا أن التوكل عبارة عن دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر في جميع الحوادث، وهذا إنما ينافي الاستقصاء وتدقيق التدبير باختلاف اللوازم لا بالذات، فحينئذ التوكل هو عدم الاعتماد على الأسباب مفضية كانت إلى مسبباتها بالقطع أم لا، وأن يكون الاعتماد على خالقها فإن اليد والطعام وقدرة التناول مثلاً كلها من قدرة الله تعالى، وكيف يتكل على اليد وغيرها وربما تفلج في الحال ويهلك الطعام، أو يحدث من تناوله مرض يؤدي إلى الهلاك، أو يتسلط على زاد المسافر غاصب أو سارق وما شاكل ذلك من الآفات، فيجب أن يعتمد على فضل الله تعالى في دفع جميع هذه الأشياء. فقد بان واتضح مما قررناه أن ليس من شرط التوكل ترك الأسباب واطراحها وإهمال الكسب بالبدن والتدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة اللقى أو كلحم على وضم[5] فإن ذلك كله حرام في الشرع ولن يتقرب إلى الله بمحارمه.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٧١.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٦٠.

(٤) سورة: الدخان، الآية: ٢٣.

(٥) في القاموس اللقى كالفتى ما طرح اهـ. أي كالخرقة البالية الملقاة. وقوله كلحم على وضم: الوضم ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير. وتركهم لحماً على وضم ذللهم وأوجعهم اهـ.

وأما الادّخار فما كان منه مع فراغ القلب عن المدخر فليس من ضرورته بطلان التوكل، هكذا صرح به في الإحياء. وأما غيره فمن انزعج قلبه بترك الادّخار واضطربت نفسه وتشوشت عليه عبادته وذكره واستشرف[1] إلى ما في أيدي الناس فالادخار له أولى لأن المقصود إصلاح القلوب لتتجرد لذكر الله، ورب شخص يشغله عنه وجود المال، ورب شخص يشغله عدمه، والمحذور هو الشغل عدماً كان أو وجوداً فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها، ولذلك بعث صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون أي أهل الحرف والصنائع، فلم يأمر التاجر بترك تجارته، ولا المحترف بترك حرفته، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله وأرشدهم إلى أن نجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار، وكذلك المعيل لا يخرج عن التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وقد ادخّر صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنته. وأما نهي أم أيمن عن أن تدخر شيئاً لغد ونهي بلال عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها وقال: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» فلأن الادخار يضر بعض الناس دون بعض، وكذلك ما روى أبو أمامة الباهلي أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن، فقال صلى الله عليه وسلم: «فتشوا ثوبه» فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال ﷺ: «كيتان» وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً كثيرة فلا يقال ذلك في حقه، ووجه الجمع بين هذين الأمرين أن إظهار الزهد والفقر والتوكل مع تلك الدنانير تلبيس - قلت: رأيت في ترجمة النجم الخبوشاني الأمَّار بالمعروف النّهاء عن المنكر للملوك فمن دونهم الذي يضرب به المثل في الزهد أنه لما مات وجدوا له ألوف دنانير هذا مع مبالغة المترجمين له في الثناء عليه، ومع ما في ترجمته من أنه كان يصوم ويفطر على خبز الشعير، ويركب الحمار وآنية بيته كلها خزف، فهذا الكلام مع نبوه عن هذا المقام سهل ذكره ما ذكره العلماء في الجمع بين حديث الدينارين وعدم إنكار الأقوال الكثيرة في ميت آخر، وأن ذلك لما أن إظهار الزهد والباطن بخلافه تلبيس فاعجب لحال الخبوشاني وعجب ولا تغتر.

---

(١) استشرف إلى الشيء تطلع إليه اهـ.

المقام الثاني في أن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين - **الزهد في اللغة** الرغبة عن الشيء خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا. **وفي الاصطلاح** ترك المباح المحبوب المقدور عليه لأجل الله، وفي ضابطه قيود: الأول ترك المباح، فتارك المحظورات لا يسمى زاهداً الثاني المحبوب فتارك ما لا يؤبه[1] إليه كالتراب والحجر لا يسمى زاهداً - الثالث كونه لأجل الله، فبذل المال وتركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب والطمع في الثناء لا يكون زهداً إذ الذكر والثناء وميل القلوب أهنأ من المال فهو استعجال حظ آخر للنفس - الرابع المقدور فمن ترك مالاً يقدر عليه كغير ابن أدهم من أمثالنا في دعوى الزهد في الملك لا يكون زاهداً. وفي افراد المباح إشارة إلى أن الزهد يتبعض كما أن التوبة تتبعض، فمن ترك بعض التمتعات من الشهوة والغضب والرياسة دون بعض كان زاهداً - وأما القانع فهو المرجح لوجود المال على عدمه ترجيحاً لا يحمله على الدأب فيه، فقولنا المرجح خرج به من لا يحب حصوله ولا يكره زواله وهو الراضي، وقولنا ترجيحاً لا يحمله على الدأب فيه خرج به من يتركه عجزاً ويسعى فيه ما وجد سبيلاً وهو الحريص، وهذه المرتبة وهي مرتبة الحرص وإن كانت دنيا فإن لها فضلاً لدخولها تحت العمومات الواردة في فضل الفقر، وذلك جمع بين قوله صلى الله عليه وسلم «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام» وبين قوله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر «بأربعين خريفاً» أي أربعين سنة، بأن الأول تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب، والثاني تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الراغب، فكان الفقير الحريص على درجتين من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد، إذ هذه نسبة الأربعين إلى الخمسمائة وأما قوله ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلّا فلا» فلا يقتضي أن الحريص لا ثواب له على فقره لأن العمومات تقتضي أن له ثواباً، فلعل المراد بعدم الرضا الكراهة لفعل الله من حبس الدنيا عنه، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله ولا كراهة لفعله.

إذا عرفت تمايز هذه الحقائق بمسمياتها وأسمائها فاعلم أن وجود المال في

---

(١) في القاموس هو لا يؤبه له أي لا يفطن ولا ينتبه إليه اهـ. والمعنى أنه لا ينظر إليه ولا يهتم به اهـ.

اليدين لا في القلب، ودخول الدنيا على العبد وهو خارج عنها لا ينافي الزهد، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح، فكم من الرهابين من رد نفسه في كل يوم إلى قدر يسير من الطعام، ولازم ديراً لا باب له، وإنما أعلى المقامات أن يستوي عند القلب وجود المال وفقده فإن وجده لم يفرح ولم يتأذّ وكذلك إن فقده. وقد روي عن عائشة أنها فرقت في يوم مائة ألف درهم فقالت لها جاريتها: هلاّ شريت لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرتني لفعلت. وذلك لأن الكاره للدنيا[1] مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله، والمشغول ببغض نفسه مشغول عن الله أيضاً بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وبغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه به منصرف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق بحب شرك، كذلك النظر إلى غيره ببغض شرك فيه ونقص. وأما هروب الأنبياء والأولياء والأكابر من الدنيا فذلك لأن الدنيا خداعة مدعاة إلى الشهوات والراحة في بذلها أنس بغير الله، والأنس بغير الله بعد عن الله، فالأنبياء والأولياء يتركون الدنيا للتشريع والتعليم والخوف على أتباعهم من أن يتشبهوا بهم مع عدم قوتهم فيهلكوا ومن دونهم ممن لا قوة له يترك ذلك احتياطاً وحزماً، فإن استواء الذهب والحجر في القلب عسير ومزلة قدم وهو حال الأنبياء وأفراد الأولياء. ويوضح لك أن المال في اليدين بدون القلب لا ينافي الزهد ان خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها. وكان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان يتصدق بها بين أريس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار، وكان للزبير عند وفاته خمسون ألف ألف ومائتا ألف قال عروة: كان للزبير بمصر خطط، وبالإسكندرية خطط، وبالبصرة دور، وكانت له غلات تقدم عليه من أعراض المدينة - وترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاث

---

(١) أي بكراهتها فهو دائماً يعمل نفسه في التنحي عنها والتخلص منها كما أن الراغب فيها مشغول بتحصيلها فهو في كلتا الحالتين مشغول بها دفعاً وتحصيلاً اهـ.

آلاف شاة. قال ابن سيرين: كان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه، وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً ـ قال أبو الأسود عن عروة: أوصى عبد الرحمن بن عوف في السبيل بخمسين ألف دينار. وروى موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كان طلحة يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبالأعراض له غلات، وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف، وقضى عن صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم. وقال الواقدي حدثني إسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة أن معاوية رضي الله عنه سأله: كم ترك أبو محمد ـ يعني طلحة ـ من العين؟ قال: ترك ألفي ألف درهم، ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار. وقال إبراهيم بن محمد بن طلحة: كان قيمة ما ترك طلحة من العقار والأموال وما ترك من الناض ثلاثين ألف ألف درهم، وترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عروض. وقال علي بن رباح: قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: حدثت أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ترك مائة بهار[1] في كل بهار ثلاثة قناطير من ذهب. قال: وسمعت أن البهار جلد ثور، والبهار لغة ثلاثمائة رطل، قال ذلك كله أبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدي في طبقاته الكبرى ـ وأيضاً كان لسعد بن أبي وقاص والبراء بن معرور السلمي والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وعبد الله بن عمر أموال كثيرة. ويدل على ذلك أن العباس فدى نفسه وابن أخيه عقيلاً بثمانين أوقية ذهباً ويقال ألف دينار. وما روي عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا رأى من رقيقه أمراً يعجبه أعتقه، فعرف رقيقه منه ذلك فشمروا للعبادة. فأعتقهم فقيل له إنهم يخدعونك فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له. وما روي أن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فقلت: يا رسول الله مال كثير وليس يرثني إلا ابني أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا». الحديث ـ فهذا كله مما يدلك أن الدنيا ليست مكروهة لعينها وإلا لأمرهم ﷺ بالانسلاخ من أموالهم.

وأما المسألة المشهورة في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر، فذهب ابن

---

(١) هو بالضم شيء يوزن به، وهو ثلاثمائة رطل أو أربعمائة أو ألف، وهو أيضاً العدل فيه أربعمائة رطل. انظر القاموس.

عـطاء الله قـدس الله روحـه إلى تفضيـل الغني وخـالـف في ذلـك الجنيـد وجمهـور الصوفية، وما أوردوه عليه من أن الغنى وصف الحق والفقـر وصف العبد، وصفـات الربوبية لا ينازع فيهـا معارض بـأن العلم والمعرفـة وصف الرب، والجهـل والغفلة وصف العبـد فليكونـا أفضـل لـه، ثم لا شـك أن الفقيـر القـانـع أفضـل من الغني الحريص، والغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص. قال ابن دقيق العيـد في شرح العمدة: الذي تقتضيـه الأصول أنهمـا إن تساويـا وحصل الـرجحان بالعبادات المالية يكون الغني أفضل ولا شك في ذلك، وإنما النظر فيما إذا تساويا في أداء الواجب فقط، وانفرد كل واحد بمصلحة ما يوفيه، فإذا كانت المصالح متقـابلة ففي ذلك نظر يرجع إلى تفسير الأفضلية، فإن فسر الأفضل بزيـادة الثواب فـالقياس يقتضي أن المصالح المتعدية أفضل من القاصرة، وإن كان الأفضـل بمعنى الأشرف بالنسبة إلى صفات النفس فالذي يحصل للنفس من التطهير للأخلاق والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقـر أشرف فترجح الفقر، ولهذا المعنى ذهب الجمهور من الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر لأن مدار الطريق على تهذيب النفس وريـاضتها وذلـك مع الفقر أكثر منه مع الغنى، فكان أفضل بمعنى التـرف؛ هكذا قـاله ابن دقيق العيـد في الكلام على قوله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» لما شكي له أن الفقراء قالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم الحديث. ـ فقد بان لك واتضح بالكـلام في هذين المقامين أن التعلق بالأسباب لا ينافي التوكل، وأن وجود المال في اليدين لا في القلب لا ينافي الزهد والمقصود إلجام المفلوكين عن التعلق بالزهد أو التوكل في انزواء الدنيا عنهم جدلاً مهما كانوا محتجين لا زاهدين حقيقة، فإن الزاهد حقيقة لا كلام معه لأن الزهد كما لا ينافي المال لا يستلزمه، وغايته أن الزهد على قسمين قسم مع المال وقسم لا مع المال فلا منافاة ولا استلزام له.

الفصل الرابع

في الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها

وهي أكثر من أن تحصى أو يحملها القلم - فمنها - ضيقة العطن والنزق[1] وذلك أن طبيعة الفرح والسرور هو تفشي الروح الحيواني وتخلخله، وينشأ من ذلك سعة الصدر وقبول النفس لما يرد عليها وانفعالها له، ولذلك تتحين أصحاب الحوائج بحوائجهم سرور من يسألونه إياها. وطبيعة الكمد والقبض هو تكاثف الروح الحيواني وتجمعه، وينشأ منه ضيقة العطن والنزق وسوء العشرة والانحراف والانكماش عن الخلق - ومنها - أن الفلاكة يلزمها القهر والإكراه، ومتى استولى القهر والغلبة على شخص حدثت فيه أخلاق رديئة من الكذب والتخبيب وفساد الطوية والخبث والخديعة، ولذلك كانت اليهود موصوفين بالخبث والذل والخديعة لاستحكام القهر عليهم وغلبة الإكراه على عامة أحوالهم، ولذلك أيضاً ينهى عن إرهاف الحد على الولدان والعبيد، ويؤمر بترويحهم ومد الطول لهم خشية عليهم من اكتساب هذه الأخلاق الذميمة.

أرسل هارون الرشيد إلى خلف الأحمر لتأديب ولده الأمين فقال له: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة فؤاده، فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام، وامنعه من الضحك إلّا في أوقاته، ولا تمرر بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه أو تهمله فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالتقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة - ومنها الحقد، وذلك أنه

---

(١) هو كناية عن انقباض الصدر. والنزق: بالتحريك الخفة والطيش عند الغضب اهـ.

إذا استحكمت الفلاكة وعرف بها شخص أوسعه الناس إغاظة استهواناً به وعدم مبالاة بغضبه وأمناً من غائلته ومغبته، فإذا تواردت موجبات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه، والإغماض عن كمالاته وتقريعه بزلاته، وتوبيخه على تقصيره، وهتك أستاره وإذاعة أسراره، وجبهه بأقبح الكلام في وجهه، وعدم اعتباره والمبالغة من عتبه، ومعاكسته في مراده أو عدم إسعافه به، وعجز عن الوقوف في ذلك موقف نكير أو أن ينفس غيظه منه بنفثة مصدور أو ضربة موتور، واستبحرت أسباب الغيظ وزخرت أمواج العجز عن إطفائه بالانتقام عاد ذلك إلى الباطن وأجج فيه ناراً وتحول حقداً وضغينة وسخيمة، وتعوقه موانع الفلاكة عن أعماله فيصير ألماً صرفاً ووسواساً سوداوياً ومعصية مجردة ـ ومنها الحسد وتوجبه الفلاكة من وجوه: أحدها أنه إذا توالت مقتضيات الغيظ كما قدمنا، وعجز المفلوك عن الانتقام تحول ذلك حقداً وضغناً كما مر والحقد يقتضي الانتقام فإن عجز أحب أن يتشفى منه بانتقام الزمان له منه، وربما يحيل ذلك على كرامته عند الله، وربما يظهر أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم منه. وبالجملة فالفلاكة يلزمها الإغاظة، والإغاظة يلزمها الحقد، والحقد يلزمه إرادة الانتقام، والعجز عن ذلك يلزمه حب زوال تلك النعمة التي بها التفاوت اللازم منه الإغاظة ولازم لازم الشيء لازم لذلك الشيء ـ وثانيها أن يثقل على المفلوك أن يترفع عليه غيره، فإذا أصاب مساوٍ له في صفات النفس مالاً أو جاهاً وخاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق أن يتكبر عليه ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتيهه وتفاخره عليه، وأن يستصغره ويستخدمه، وعجز عن زوال الفلاكة عنه واللحوق به في تلك النعمة أحب زوالها عن غيره ـ وثالثها ما يحدث في نفوس المفلوكين من دعوى الاستحقاق لتلك النعم ولذلك قال ابن مقلة:

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة * في شامخ من عزه المترفع
قالت لي النفس العروف بقدرها * ما كان أولاني بهذا الموضع

حتى إن من المفلوكين من تنتهي به دعوى الاستحقاق إلى حد يرى أن النعم التي بأيدي الناس استحقاقه ومغصوبة منه والمالك المستحق طالب لزوال ماله من أيدي الغاصبين لا محالة ـ ومنها الغيبة والطعن في أعراض الناس والغض منهم، وذلك أن الغضب والحقد والحسد ثلاثتها من البواعث العظيمة على الغيبة إذا امتلأ المفلوك

غضباً وحقداً وحسداً وعجز عن الجري على مقتضاها جهاراً ومواجهة، التجأ إلى الفكرة والغوص على مساوىء خصومه، وإعمال الحيلة في الاطلاع على عوراتهم، وضم إليها أكاذيب وتنميقاً، ونشرها على وجه الغيبة مرة إرادة الترفع بنفسه بسلامته من تلك النقائص أو لاتصافه بنقائضها الكمالية على سبيل التعريض كما يقول: فلان فاسق أو شرير إرادة سلامته من ذلك، أو فلان جاهل أو ذهنه ركيك وكلامه ضعيف تعريضاً باتصافه بنقائض ذلك. ومرة إرادة صرف الناس عن الاسترسال في تعظيم خصومه وكفهم عن الإفراط في الثناء عليهم ومحبتهم بتوقيفهم على ما يوجب تنقيصهم وصرف القبول عنهم، ومرة بتمهيد عذر نفسه من اتصافه بالمساوىء والنقائص بمشاركة العظماء له في تلك المساوىء، ومرة على سبيل اللذة بالطعن في الأعراض تشفياً بحسب المقدور حتى قال بعض الأعراب: لم يبق من لذات الدنيا إلا الطعن في أعراض اللئام، ثم يتعود لسانه هذه المعصية العظيمة حتى تصير له خلقاً وفكاهةونقلاً ويساعده على ذلك إمكانها وتسهيلها وعدم افتقارها إلى أدوات وآلات، وكونها عبارة عن النطق الذي هو انضغاط الهواء في المجرى على مقاطع الحروف والهواء والتنفس طبيعي للحيوان بخلاف غيرها من المعاصي لتوقفه على أدوات كثيرة. وأيضاً فالإنسان خلق فعالاً بالطبع كما ذكره الشيخ في الإشارات ولا يتخلف عن مقتضى طبعه من الفاعلية إلّا لصارف وصادٍّ كما في الأفعال الشاقة التي لا يمكن مزاولتها إلّا بتجشم الكلف والمؤن، وكما في الصارف العقلي أو الوهمي من الكلام المضر، فمهما وجد المقتضى وزال الصارف عن الفعل كما في الكلام عملت الطبيعة عملها ولذلك كان الامتناع من الكلام ولزوم السكوت عسيراً شديداً ـ ومنها كون الفلاكة غطاءً وستراً على محاسن المفلوك وكمالاته النفسانية وأدواته ومعارفه حتى إن الفلاكة تسري إلى نطقه ومصنوعاته ومقاصده، فإما أن يغفل عن محاسن كلامه ومقاصده ولا يعبأ بها ويعرض عنها، وإما أن يصرف كلامه عن ظاهره بوجه من التأويل، وإما أن لا يفهم مراده منه، وإما أن يدعي عليه غير مراده، وإما أن يدعي فساد قصده فيه، ولذلك تروج بعض الكتب بنسبتها إلى رجل مرموق بعين الجلالة كما فعل في الورقات حيث نسبت إلى إمام الحرمين، وليست له بشهادة عباراته الفائقة الرائقة في باقي كتبه ومخالفة الورقات لما في البرهان في التصحيح والحكم، وكما فعل في السر المكنون وفي المضنون به على غير أهله حيث نسبا إلى الغزالي كما

قاله الإسنوي في الطبقات وليسا له كما ذكره في الطبقات، ولذلك أيضاً تجد البحث النفيس يلقيه الباحث بين الأفاضل فيبادرونه بالإنكار والتزييف والمناقشة ويضايقونه فيه حتى يقول لهم: هذا البحث قاله الإمام فخر الدين الرازي أو الزمخشري مثلاً أو من في معناهما، فحينئذ يرجعون إلى ذلك البحث بالتأويل والتثبت ويعترفون بحسنه وربما يزيدونه توجيهاً وتقريراً. ولكون الفلاكة غطاءً وستراً على المحاسن تجد الشهرة والصيت والسمعة يقعن في غير موقعها غالباً، فرب شخص مشهور بالعلم أو الصلاح وليس هناك، ورب شخص قعدت عنه الشهرة وهو أحق بها وذلك لأن الفلاكة متى زالت عن شخص تزلف إليه بالثناء عليه ونشر المحاسن عنه، وحمل كلامه وفعله من المحاسن والمقاصد الجميلة فوق طاقته وتناقلته الألسنة تزلفاً إليه لما يعلمون من أن النفوس مجبولة على حب الثناء، ووقعت المحاباة والإغماض عن أحواله المدخولة، وأفرغت في قوالب جميلة بالتأويل والاعتذار، وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنع، فيطير ذكره في الآفاق وتسير به الركبان ويجيء الصيت والشهرة وليس هناك. وعلى الجملة فالشهرة إنما تقع في غير موقعها من جهة ما يطرق الأخبار من التزلف بالثناء الكاذب أو ما يطرق الأحوال من الخفاء وعدم تطبيقها على الواقع لخفائها بالتلبيس والتصنع فتنتشر على خلاف ما هي عليه، وأنت خبير بأن التزلف بالثناء إنما يكون للأغنياء أو من في معناهم، وأن الإغماض عن التلبيس والتصنع وعدم كشف الغطاء عنه إنما يكون لهم أيضاً واعتبر العكس بالعكس - ومنها أن الفلاكة مهما استولت على عالم أو فاضل أو نبيه لزمه بسببها آلام عقلية، ولا شك أن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني، ولذلك يكون التعب القلبي أشد إنهاكاً للبدن من التعب الجسماني، ولذلك يتحمل عظيم المشاق البدنية خوفاً من العتب والتوبيخ والملامة والتقريع، كما أن اللذة العقلية أقوى من اللذة الجسمانية والدليل على ذلك من ثلاثة أوجه: أولها أن اللذة عبارة عن إدراك الملائم، وكلما كان الإدراك أشد والمدرك أشرف كانت اللذة أتم، لكن الإدراك العقلي أقوى من الجسمي لأنه ينفذ في باطن الشيء فيميز بين الماهية وأجزائها وعوارضها وجنسها وفصلها، وأما الحسي فلا شعور له إلّا بظاهر المحسوس وسطوحه، ومدرك العقل أشرف وهو الله تعالى وصفاته وملائكته وكيفية وضع العالم، ومدرك الحس السطوح وعوارضه وإذا كان كذلك وجب كون اللذة العقلية أقوى من اللذة الجسمانية - وثانيها: أنّا نعلم بالضرورة أن أحوال الملائكة أطيب من

أحوال البهائم، وليس للملائكة شيء من اللذات الحسية، فلولا أن اللذة العقلية أطيب وإلّا لكان حال البهائم أطيب من حال الملائكة ـ وثالثها: الحيوان قد يرجح غيره على نفسه في المطعوم والمشروب عند حاجته إليه، ولولا أن لذة الإيثار أقوى من لذة المطعوم والمشروب وإلّا لما كان ذلك بل الشجاع قد يلقي نفسه في المعركة مع ظن الهلاك أو يقينه، وما ذلك إلّا لأن لذة الحمد أقوى من لذة الحياة، وإذا ثبت ذلك في اللذة ثبت مثله في الألم العقلي والجسماني لأن نسبة هذا الألم إلى الألم الجسماني كنسبة اللذة العقلية إلى اللذة الجسمانية، وكلام الفلاسفة وابن سينا طافح بأن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني.

إذا تقرر ذلك كله فللمفلوكين من أهل العقل والفضل والنباهة آلام عقلية تلزمهم: أولاها تشوفهم وتشوقهم إلى المكارم والمعالي ومد أعناقهم نحوها، ولا شك أن الشوق إلى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهي عنه عذاب مذاب، ولذلك لا يبتهجون بالأعياد والمواسم بل تكون زيادة في كمدهم ونكدهم، وستأتي أشعارهم في تشوقهم إلى المعالي وتألمهم على فقدها في الفصل الثاني عشر إن شاء الله تعالى ـ وثانيها: تألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحياناً بحكم البشرية لما ركب الله تعالى في البشر من القوة الشهوانية والغضبية والمتوهمة اللواتي هي أصول الفساد، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾[1] في أحد الأقوال، ولما أن للقلب ميلاً إلى الأخلاق السبعية والبهيمية والشيطانية على ما هو مقرر في كتب الصوفية، ولما ركب أيضاً في الجسم من التسفل، ولما جعل من أن الفساد أدخل تحت القدرة من الصلاح كالبناء والهدم، ولا شك أن إطلاق النفس وطبيعتها ترويح لها وتنفيس من ألم ضبطها، وحينئذ فيكون الترويح والتنفيس بالنسبة إلى المفاليك ناقصاً مخدجاً[2] لما فيه من ترقب التنقيص به، ويكون أيضاً عسير الانتظام نادر الوقوع لذلك، ولقد أحسن من قال:

إما ذنابى ولا تعباً بمنقصة * أو ذروة المجد واحذر أن تقع وسطا[3]

---

(١) سورة: المرسلات، الآية: ٣٠.

(٢) هو من أخدجت الناقة جاءت بولد ناقص وإن كانت أيامه تامةً. ويقال: رجل مخدج اليد ناقصها اهـ من القاموس.

(٣) الذنابى مثل حبارى الذنب وذروة الشيء أعلاه، أي كن ذنباً سافلاً أو ذروة عالياً راقياً اهـ.

وأشد من ذلك ألماً وأعظم مصيبة إضافة النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها برآء ولقد عرى أهل الفضل من ذلك شدائد ـ كان الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ساقط أحد الرجلين، وكان يمشي في حلوب من خشب لسقوطها بالثلج في بعض أسفاره في بلاد خوارزم، فكتب معه محضراً فيه شهادة خلق كثير بذلك لئلا يرمى بنقيصة السرقة ـ وكان ابن فضلان أبو القاسم يحيى ابن علي بن الفضل البغدادي الملقب جمال الدين الإمام في الأصول والخلاف والجدل الرئيس الوجيه ذاهب إحدى اليدين لأنه لما خرج من نيسابور سقط عن دابته ففسدت يده وأدت الحال إلى قطعها، فعمل محضراً بذلك خوفاً من التهمة بالقبيح، ومع ذلك فقد كان يجري بينه وبين المجير البغدادي مناظرات فيشنع هو على المجير بالفلسفة والمجير يشنع عليه بقطع يده ـ والسبب في تخصيص أهل الفضل بإذاعة نقائصهم وعدم إقالتهم إياها والتلبيس والافتراء عليهم مهما كانت محققة أو موهومة محتملة أن النفوس مجبولة على المساواة والمباهاة، ولا تحب لغيرها تفوقاً عليها، فمهما وجدت سبيلاً للتنقيص من كمال الكمل ولو تلبيساً مقبولاً سلكته تنقيصاً للكمال وطلباً للمساواة بحسب الإمكان بخلاف الناقص في نفسه فإنه لا حاجة إلى تنقيصه ـ وثالثها: ألم الانفراد مع أن الإنسان مدني بالطبع لا يمكنه أن يستقل بنفسه منفرداً عن الغير بحيث لا يستعين بأحد في حاجاته وضروراته، بل لا قوام لأحواله إلّا بالتعاون، حتى أن الرغيف من الخبز لا يصير رغيفاً إلّا بآلات وأعمال تفتقر إلى صناع كثيرين كثرة بالغة. والمدنية في اصطلاح الحكماء هي الاجتماع، ولما أن الإنسان مدني بالطبع في أحواله الكمالية والمصلحية فلا يمكنه أن يستقل بنفسه منفرداً عن الغير بحيث لا يستعين بأحد في أموره الكمالية والمصلحية، والوجدان والتجربة أصدق شاهد في ذلك، والمناسبة والإخالة تصحح القياس والإلحاق والمفاليك يلزمهم الانفراد لزوماً لا انفكاك لهم عنه. والسبب في ذلك أن الناس بالإضافة إلى المفلوك أربعة أقسام: مساوٍ له في الفلاكة. أكثر منه فلاكة. أعلى منه بقليل. أعلى منه مطلقاً ـ ووجه الحصر أن المأخوذ بالإضافة إلى المفلوك إما مفلوك أو غير مفلوك، والأول إما مساو أو أنزل، والثاني إما أعلى بقليل أو أعلى مطلقاً. إذا تقرر ذلك فالقسمان الأولان لا فائدة في الاجتماع بهما لأن حكمة التمدن مفقودة فيهما، وغاية الاجتماع بهما تضاعف الفلاكة وتكاثفها، وتغليظ الحجاب الحاجب عن المقاصد كانضمام ظلمة

إلى أخرى وكغسل العذرة بالبول. والقسم الأخير يمنع من الاجتماع به أمور أعظمها أن العظماء والنبلاء يحرصون على سد الذرائع في أطماع المفلوكين في جانبهم بتبعيدهم والإعراض عنهم خشية من تثقيلهم بحوائجهم وأن يكونوا كلاًّ عليهم، وأنهم يتأنفون المفاليك ويستقذرونهم ويستثقلون ظلهم ويتوقعون من تقريبهم مفاسد وضوحها يغني عن بسطها، ويتوهمون في بعضهم حسداً وتملقاً كاذباً صاخياً[1] من غير إخلاص ولا مناصحة. والقسم الثالث يمنع من الاجتماع بهم أمور كثيرة أعظمها عدم تعلق الرجاء والخوف بالمفاليك الذي هو داعية الاجتماع غالباً، وشغل هذا القسم بالمساوين لهم في النباهة بحيث لا يفضون للاجتماع بالمفاليك غالباً، وعدم حرص المفاليك على استمالتهم واستعطافهم لضعف الرجاء فيهم، ولكن هذا القسم أقل مانعاً من القسم الأخير، ولذلك ربما نال بعض المفاليك حظاً من الاجتماع بهم - ومنها ولوعهم بالأسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع ما فيه من العذاب المذاب بشهادة قوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب» - ولقد صرح بتعليل السفر بالفلاكة من قال:

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم * وترمي النوى بالمقترين المراميا

والسبب في ذلك يفتقر بيانه إلى مقدمة، وهي أن الظن أقوى من الشك والعلم أقوى من الظن، ورتب الظنون متفاوتة في نفسها جلاء وخفاءً، وأجلى لقوة مستند الظن وضعفه، وكذلك رتب العلوم متفاوتة في المعلومية، فكم بين المشاهدات وبين كل قضية صدق العقل بها بواسطة الحس كعلمنا بحرارة النار وبرودة الثلج، وبين الحدسيات وهي كل قضية يصدق العقل بها بواسطة الحدس كالعلم بحكمة الصانع عند رؤية العالم على غاية الاتقان من التفاوت وإن كان كل من المشاهدات والحدسيات مفيداً للعلم، ولذلك لم ينكر العلم المستفاد من الحس إلا السوفسطائية، وكم بين العقلاء من الاختلاف في الحدسيات اختلافاً قوياً وضعيفاً ولذلك أيضاً فرقوا بين علم اليقين وعين اليقين، ومن هنا ينكشف لك مادة الجواب عن قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾[2] ثم الإنسان

(١) في القاموس صخي الثوب كرضي اتسخ ودرن اهـ ومنه يفهم المراد.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٠.

متشوف إلى مصلحته، فإذا تعارض عنده في تحصيل مصلحته طريقان أحدهما مظنون والآخر مشكوك فيه، أو أحدهما أجلى في الظن من الآخر أو أحدهما قوي في المعلومية من الآخر فالعمل بهما معاً جمع للنقيضين، وتركهما معاً رفع للنقيضين وكلاهما محال، والعمل بالمرجوح وترك الراجح خلاف صريح العقل فيتعين العمل بالراجح إذا تقرر ذلك، فالسبب في كثرة تنقلات المفلوكين في الأرض أنه متى استولت الفلاكة على شخص في بلد واضطرب في أرجائها وتلكع في طرق معاشها وذاق طبائع أهلها وراز شهامتهم وعصبيتهم وارتياحهم إلى المحامد وأريحيتهم، وامتحن قوته في التسلق إلى مطالبه وأبت تلك البلد عليه إلّا نبوّاً ودفعاً وممانعة عن المطلوب، ومل وجوهاً لا خير فيها، ومج سمعه كلاماً لا محصل له، وقذفهم بقلبه فقذفوه بقلوبهم بل وبظواهرهم، فحينئذ يظن أو يعلم أن تأتّي المصلحة في ذلك البلد مستحيل أو متعسر، والبلد الثاني ظن الخير قائم به لا سيما فيمن يتوهم في نفسه استعداداً لإفاضة الخير عليه، فيحب حينئذ السفر إلى البلد الثاني والأقيسة العقلية وإن اقتضت استمرار الفلاكة في البلد الثاني من جهة أن موجبات الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبة له سفراً وحضراً، وكذلك موجبات فلاكته القائمة بالناس موجودة فيهم في كل بلد، لكن الأدلة متعارضة في البلد الثاني والعلم المستفاد بالتجربة في البلد الأول مفقود في البلد الثاني، والاحتمالات مقتضية للاضطراب وليس الخبر كالعيان، ولا الشر الحاصل المحسوس كالشر المترقب المعقول وإن كانا معلومين، ولذلك من قصده شخص بسيف مصلتاً يريد قتله وهو على سطح عال يرمي بنفسه منه إلى الأرض وإن كان ذلك أحد الطريقين في هلاكه، وربما صار السفر للمفلوك طبيعياً لكثرة ما يعاني من الشدائد والمشاق كمن وقع في ماء أو نار فإنه بطبعه يأخذ إلى محيط النار وساحل الماء ـ وإذا اتضح عندك ما قررناه وقفت على الحكمة في تمني المفلوكين تغير الدول وتشوفهم إلى ذلك فإن الدولة الحاضرة كالبلد الأول، والدولة المتمناة كالبلد الثاني، وقوة الرجاء وقيام احتمال الخير المتعلق بالدولة الثانية حكمه حكم البلد الثاني، وقد أشار إلى ذلك من قال:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء * نصيب من الدنيا تمنى زوالها

ـــ ومنها تعلقهم بالأسباب المستحيلة كالنجوم والكيمياء والمطالب والحرف

الهوائية الضعيفة الصدفية كصناعة الشهود لغير المعروف والدلالة لغير المشهود، والسبب في ذلك أنه إذا أخفقت مساعي المفاليك وعجزوا عن المعاش الطبيعي والتعلق بالأسباب المقيسة المطردة ودهشوا وتحيروا وعميت عليهم الأنباء وتعلقت نفوسهم بالدنيا ولذاتها تمنوا الأماني وقنعوا بمخادعة الاملاق بالمواعيد الكاذبة، واستنشقوا الغنى من حيث لا تهب ريحه، وأتوا السعادة من غير أبوابها. وأنا أبيّن وجه استحالة الأسباب الأول: وهي الكيمياء والنجوم والمطالب واستحالة إفضاء التعلق بالسبب الآخر إلى المطلوب ـ فأما النجوم فنقول ليس البحث في تأثير شعاع الكواكب في التسخين عند المسامتة أو التبريد عند الانحراف عن المسامتة، ولا في وجود الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه، ولا فيما يجري مجرى التأثير الطبيعي على حسب ما نصه سبحانه وله الحمد مثل أن النبات ينمى ويقوى ويشتد ويتكامل وينضج ثمره بالشمس والقمر، وكما في امتداد القثاء وطوله وغلظه بالقمر وسرعة نضج التين وإدراكه بمقابلة الشمس وبقائه فجاً بطيء الادراك بخفائه عن الشمس، ومثل أن البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤوسنا وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤوسنا، وكذلك ليس البحث في أن الشمس إذا طلعت فإن الحيوان ناطقه وبهيمته يخرج من أماكنه وأكنته، وتظهر القوة والحركة فيهم وتزداد قوة الحيوان مع ازدياد صعود الشمس في الربع الشرقي، وتنقص وتضعف قوة الحيوان وتفتر مع ميل الشمس عن وسط السماء، ولا في ارتباط فصول العام الأربعة بحركات الشمس ولا في انفتاح اللينوفر وورق الخطمي وتحركه بطلوع الشمس وضعفه إذا غابت عنه، ولا في المد الحاصل في بحر فارس والهند إذا بلغ القمر مشرقاً من مشارق البحر إلى أن يصير القمر إلى وسط سماء ذلك الموضع، ولا في الجزر الحاصل في البحرين المذكورين، ولا في تأثير الشمس والقمر حرارة ورطوبة وبرودة ويبوسة وتوابعها في هذا العالم من الحيوان والنبات بواسطة الهواء وقبوله للسخونة والحرارة بانعكاس شعاع الشمس مثلاً عليه عند مقابلتها لجرم الأرض واختلاف حال الهواء بذلك، واختلاف أحوال الأبخرة في تكاثفها وبردها ولطفها وحرها. ولا في أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء الى محاذاة ممرّ رأس السرطان وكانت الشمس تمر على رؤوسهم في السنة إما مرة أو مرتين تسودت أبدانهم وجعدت شعورهم وقلت رطوباتهم فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم. ولا في أهل

الهند واليمن وبعض أهل المغرب لما كانت مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممر السرطان كان السواد فيهم أقل وطبائعهم أعدل وأخلاقهم أحسن وأجسامهم أنصع. ولا في أهل العراق والشام وخراسان وفارس والصين لما كانت مساكنهم على ممر رأس السرطان إلى محاذاة بنات نعش الكبرى، والشمس لا تسامت رؤوسهم ولا تبعد عنهم بعداً كثيراً، وأن لذلك لم يعرض لهم حر شديد ولا برد شديد كانت ألوانهم متوسطة وأجسامهم معتدلة وأخلاقهم فاضلة. ولا في أن هؤلاء مختلفون بحسب اختلاف ذلك فمن كان من هؤلاء أميل الى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء والفهم، ومن كان منهم يميل إلى ناحية المشرق فهم أقوى نفوساً وأشد ذكورة، ومن كان يميل إلى ناحية الغرب غلب عليهم اللين والرزانة. ولا في أن الترك والصقالبة لما كانت مساكنهم محاذية لبنات نعش والشمس بعيدة عن مساكنهم كان البرد غالباً عليهم والرطوبة مستولية عليهم لأنه ليس هناك من الحرارة ما ينشفها، وكان لذلك ألوانهم بيضاء وشعورهم سبطة شقراء، وأبدانهم رخصة وطبائعهم مائلة إلى البرودة وأذهانهم جامدة. ولا في أن الأخلاط التي في بدن الإنسان تزيد مادام القمر آخذاً في الزيادة ويكون ظاهر البدن أكثر رطوبة وحسناً فإذا نقص ضوء القمر صارت هذه الأخلاط في غور البدن والعروق وازداد ظاهر البدن يبساً. ولا في ازدياد ألبان الحيوانات بتزايد القمر أول الشهر إلى نصفه وتناقصها مع نقصانه. ولا في أدمغة الحيوان وإمقال البيض التي تزيد أول الشهر وتنقص آخره. ولا في أن الإنسان إذا نام أو قعد في ضوء القمر حدث في بدنه الاسترخاء والكسل وهاج عليه الزكام والصداع. ولا في بلاء الكتان وفساد اللحم وتغير طعمه بانكشافه لضوء القمر. ولا في كثرة الأسماك في البحر وسمنها أول الشهر وقلتها وضعفها آخره. ولا في قبول الرياض والأشجار للنمو والنشو إذا غرست أول الشهر وعدم قبولها لذلك إذا غرست آخره - إنما البحث في أن النجوم تؤثر في جملة الحوادث السفلية من السعادة والشقاوة والذكاء والبلادة والحسن والقبح والخديعة والمكر والنذالة والشهامة والشجاعة والجبن والأشكال والمقادير ونحوها، وأن ذلك كله باتصالات الكواكب وانفصالاتها ومسامتتها ومباينتها، فإن هذا مما لا برهان عليه لا بخبر من لا يجوز الكذب عليه ولا بضرورة العقل ولا بنظره وغايته حدس وتخمين وظنون كاذبة وتزوق وتفرس وحيلة وخديعة حتى إن من لا يتقيد بالشريعة كابن سينا والفارابي بالغا في الردّعلى الأحكاميين والنجوميين، وأطال في ذلك ابن

سينا في آخر الشفاء، وحتى أن أبا معشر وهو من أئمتهم اعترف بأنه تخمين فإنه قال معتذراً: كل الأعراض الغائبة توهم لا يكون شيء منها يقيناً وإنما يكون توهم أقوى من توهم. وانظر ما كان أقوى تعلق بني برمك بالنجوم حتى في ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم، وكيف كانت نكبتهم الشنيعة، وانظر حال عليّ بن مقلة الوزير وتعظيمه لعلم أحكام النجوم ودخوله داره على طالع سعيد فنكب فيها أشد نكبة وقطعت يده ولسانه ـ والدليل على بطلان ذلك أنّا نشاهد عالماً كثيراً يقتلون في ساعة واحدة في حرب، وخلقاً يغرقون في ساعة واحدة مع القطع باختلاف طوالعهم واقتضائها عندهم أحوالاً مختلفة، ولو كان للطوالع تأثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك، ولا ينفعهم الجواب بأن طالع الوقت قد يكون أقوى من طالع الأصل، فيكون الحكم له لأنا نقول هذا بعينه يبطل الجزم بطالع المولود، ويحيل القول بتأثيره فلعل طوالع الأحوال المتجددة أقوى من طالع الأصل فيرتفع الوثوق بطالع الأصل إذ لا أمان لاقتضاء الطوالع بعده ضدّ ما اقتضاه، وحينئذ فلا يفيد اعتباره شيئاً ـ وأيضاً فإنه لو كان طبيعياً وذاتياً لما اختلف والتالي باطل فالمقدم مثله أما الملازمة فظاهرة، وأما بطلان التالي فإن المنجمين قلما يجمعون على شيء ويكون كذلك ـ فمن ذلك اتفاق حذاقهم سنة سبع وثلاثين عام صفين في مخرج علي رضي الله عنه من الكوفة إلى محاربة أهل الشام على أنه يقتل ويقهر جيشه، فظهر كذبهم وانتصر جيشه على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص منهم إلّا بالحيلة التي وضعوها من نشر المصاحف على الرماح والدعاء إلى ما فيها ـ ومن ذلك اتفاقهم عندما تمَّ بناء بغداد سنة ست وأربعين ومائة على أن طالعها يقتضي أنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حيث قال بعض شعرائه:

يهنيك منها بلدة تقضي لنا * أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها * أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا الهذيان في نفوس العوام موت المنصور بطريق مكة، ثم المهدي بماسدان، ثم الهادي بعنيساباد، ثم الرشيد بطوس، فلما قتل بها الأمين بشارع باب الأنبار انخرم هذا الأصل حتى رجع القائل الأول فقال:

كذب المنجم في مقالته التي * نطقت على بغداد بالهذيان
قتل الأمين بها لعمري يقتضي * تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغير هؤلاء ـ ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين في قصة عمورية على أن المعتصم إن خرج لفتحها كانت عليه الدائرة وأن النصر لعدوه، فخرج ففتح عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة، وفي ذلك الفتح قام أبو تمام الطائي منشداً:

السيف أصدق إنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة * بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة * ليست بنبع إذا عدت ولا غرب[1]

وهي نحو من سبعين بيتاً أجيز على كل بيت منها بألف درهم ـ ومن ذلك اتفاقهم وفيهم زعيمهم أبو الحسن العاصمي على أن المكتفي بالله إن خرج لقتال القرامطة لم يرجع وتزول دولته وأن طالع مولده يقتضي ذلك، وأخافوا وزيره القاسم بن عبيد الله من الخروج معه فخرج إليهم المكتفي وأخذهم جميعاً، ولما عاد وزيره القاسم أمر بإحضار رئيس المنجمين وصفعه صفعاً عظيماً ـ ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة عندما أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة المعزية وقد كان سبق مولاه الملقب بالمعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره ببنائها، وأن يكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة، ويكون بطالع الكواكب القاهر وهو زحل أو المريخ، ولذلك سميت القاهرة فجمع القائد جوهر المنجمين فحققوا الرصد وأمر البنائين أن لا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعوه، وأن يكونوا على نهاية من التيقظ والإسراع فوضعت على ذلك الاتقان، واتفقوا على أن الدولة الفاطمية لا تخرج الدولة عنهم، فلما استولى عليها صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان المصريون قائمين بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف توهم الجهال أن ما قاله المنجمون حق، فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بني العباس ظهر كذبهم. وكانت المدة بين وضع الأساس وانقراض الدولة نحواً من مائة وثلاثة وتسعين عاماً، واعتذار من اعتذر عنهم بسبق البنائين

(١) النبع شجر تعمل منه القسي والسهام، والغرب بالتحريك شجر أيضاً اهـ. من القاموس .

الإرصاد بعيد لأن تبديل البناء وتغييره مع الاحتياط للدولة مع سهولة التغيير مما لا يتسامح به ـ ومن ذلك اتفاقهم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم على أنها السنة التي تنقضي فيها بمصر دولة العبيديين وذلك عند خروج الوليد بن هشام المعروف بأبي ركوة الأموي وحكم الطالع له بأنه هو القاطع لدولة العبيديين، وأنه لا بد أن يستولي على الديار المصرية ويأخذ الحاكم أسيراً، ولم يبق بمصر منجم إلّا حكم بذلك وأكبرهم المعروف بالفكري منجم الحاكم، فكان أبو ركوة قد ملك برقة وأعمالها، وكان من تدبير الحاكم أن دعا خواصهم وأمرهم أن يكاتبوا أبا ركوة ويطمعوه باختياره على الحاكم ففعلوا، فزحف أبو ركوة بعساكره حتى نزل بوسيم على ثلاثة فراسخ من مصر، فخرجت إليه العساكر الحاكمية فهزمته فتحقق أنها خديعة فهرب وقتل خلق كثير من عسكره، وطلب فأخذ أسيراً ودخل به إلى القاهرة على جمل مشهوراً ثم أمر الحاكم بقتله سنة ٣٩٧، وأمر الحاكم بالفكري فقتل ـ والسبب في استمالة الفكري للحاكم أن الفكري أصاب معه في قضيتين إحداهما أن الحاكم عزم على إرسال أسطول إلى مدينة صور لمحاربتهم، فسأله الفكري أن يكون تدبيره إليه ليخرجه في طالع يختاره وتكون العهدة ان لم يظفر عليه واتفق ظهور الأسطول. الثانية أنه ذكر له أن بساحل بركة موريس مسجداً وأن تحته كنزاً وسأله أن يتولى هو هدمه، فإن ظهر الكنز وإلّا بناه هو من ماله فاتفق إصابة الكنز ـ ولما حكم عليه الفكري بتغيير دولته وقضى المنجمون بمثل قضائه وقع في نفس الحاكم أن يغير دولته تغييراً معنوياً، فعمد إلى كل متولٍ في دولته ولاية فعزله منها، وقتل وزيره الحسن بن عماد وصار يأمر في يومه بخلاف ما يأمر به في أمسه، فأمر بسب الصحابة رضي الله عنهم على رؤوس المنابر والمساجد، ثم أمر بقطع سبهم وعقوبة من سبهم وأمر بقطع شجرة الزرجون(١) من الأرض، وأوجب القتل على من شرب الخمر، ثم أمر بغرس هذه الشجرة وأباح شرب الخمر وأهمل الناس حتى نهب الجانب الغربي من القاهرة وقتلت فيه جماعة، ثم ضبط الأمر حتى أمر أن لا تغلق الحوانيت ليلاً ولا نهاراً وأمر منادياً ينادي: من عدم له ما يساوي درهماً أخذه من بيت المال درهمين بعد أن يحلف على عدمه أو يعضده بشهادة رجلين، حتى تحيل الناس

---

(١) في القاموس الزرجون ـ محركة ـ الخمر والكرم أو قضبانها وصبغ أحمر اهـ.

في ستر حوانيتهم بالجريد لئلا تدخل الكلاب. ثم لما قتل الفكري لم يزل أثر التنجيم في نفسه لتشوف النفس إلى التطلع إلى الحوادث قبل وقوعها، فجمع المنجمين جمعاً ثانياً بعد أن جمعهم أولاً وعملوا له الرصد الحاكمي الذي خالف فيه الرصد المأموني، فألزموه فيما ألزموه بركوب الحمار، وأن يتعاهد الجبل المقطم في أكثر الأيام، وينفرد وحده يخاطب زحل، وحكموا بأنه ما دام كذلك كان سالم النفس، فلزم ما أشاروا عليه به فخرج بحماره إلى ذلك الجبل على عادته وانفرد بنفسه لكوكبه وقد استعد له قوم بسكاكين فقطعوه هناك وأعدموا جثته فلم يعلم له خبر، فمن هنا تقول أتباعه الملاحدة أنه غائب منتظر - ومن ذلك اتفاقهم سنة ٤٨٢ على خروج ريح سوداء تكون في سائر الأقطار تهلك الناس إلاّ من اتخذ لنفسه مغارة في الجبال بسبب أن الكواكب كانت اجتمعت في برج الميزان وهو برج هوائي، كما اجتمعت في برج الحوت زمن نوح عليه الصلاة والسلام وهو برج مائي فحصل الطوفان، فاتخذ الرعاع المغاير استدفاعاً لما أنذروهم به، فلما جاء الوقت الموعود قل هبوب الرياح حتى أهم الناس ذلك لما هم عليه من الكرب وظهر كذبهم - ومن ذلك اتفاقهم في الدولة الصلاحية على أن الإسكندرية لا يموت فيها والٍ، فلما مات بها الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب سنة ٤٧٤، ثم واليها فخر الدين قراجا بن عبد الله سنة ٤٨٩، ثم واليها سعد الدين بن سودكين بن عبد الله سنة ٦٠٤ انخرمت هذه القاعدة - ومما اتفق عليه المنجمون أن الإنسان إذا أراد أن الله تعالى يستجيب دعاءه جعل الرأس في وسط السماء مع المشتري أو بنظر منه مقبول والقمر متصل به أو منصرف عنه متصل بصاحب الطالع، أو صاحب الطالع متصل بالمشتري ناظر إلى الرأس نظر مودة، فهناك لا يشكون أن الإجابة حاصلة. قالوا: وكانت ملوك اليونان يلزمون ذلك فيحمدون عقباه، والعاقل يعلم أن الله تعالى لا يتأثر بحركات النجوم ولا توجب النجوم عليه شيئاً.

وأما الكيمياء فلا بحث في إمكانها على يد ولي من قبيل الكرامات وخرق العادات، ولا في الوصول إلى تصحيح صبغها ظاهراً على وجه التلبيس والغش كما يفعله الفساق، إنما البحث في تصيير النحاس ذهباً حقيقة على طريقة صناعية مطردة فهذا مما لا أعتقد صحته. وقد صنف الشيخ تقيّ الدين بن تيمية رسالة في إنكارها وكذلك ابن قيم الجوزية كما حكاه هو عن نفسه في كتابه المسمى (مفتاح دار

السعادة)، واضطرب كلام الفارابي في إمكانها فأثبتها مرة ونفاها أخرى. والشيخ أبو علي بن سينا سلم إمكان أن يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب، وأن يزال عن الرصاص أكثر ما فيه من النقص، قال: وأما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسى فلم يظهر لي إمكانه إذ هذه الأمور المحسوسة يتشبه أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجسام أنواعاً بل هي أعراض ولوازمها وفصولها مجهولة، وإذا كان الشيء مجهولاً كيف يمكن قصد إيجاده أو إفنائه. وللفلاسفة في امتناعها مطلقاً حجج كثيرة، فمن أقواها أن الطبيعة إنما تعمل هذه الأجسام من عناصر مجهولة عندنا، ولتلك العناصر مقادير معينة مجهولة عندنا، ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة أي في نفسها وهي مجهولة عندنا، ولتمام الفعل والانفعال زمان معين هو مجهول عندنا، ومع الجهل لكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الأجسام - ومنها لو كان الذهب الصناعي مثلاً للذهب الطبيعي لكان ما بالصناعة مثلاً لما بالطبيعة لكن التالي باطل إما أولاً فلأنّا لم نجد شبهاً، وإما ثانياً فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة لما حصل بالطبيعة ولما ثبت امتناع التالي ثبت امتناع المقدم - ومنها أن لهذه الأجساد أماكن طبيعية وهي معادنها هي لها بمنزلة الأرحام للحيوان، فمن جوز تولدها من غير تلك المعادن كان كمن جوز تولد الحيوان من غير الأرحام - ومنها أن هذه الأجساد متباينة بفصولها النوعية وتلك الفصول مجهولة لنا فلا يمكننا إيجادها ولا إعدامها، وبتقدير أن تكون الفصول معلومة لنا لا يمكننا إزالتها وتحصيلها لأنه لو جاز أن يجعل نوعاً لجاز أن يجعل الفرس حماراً وبالعكس - ومنها أن الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ أو يكون المصبوغ أصبر أو متساويين، فإن كان الصابغ أصبر وجب أن يفنى المصبوغ قبل الصابغ، وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يفنى الصابغ ويبقى المصبوغ على حاله الأول عرياً عن الصبغ، وإن استويا فكلما استويا في المصابرة على النار كانا من نوع واحد فليس أحدهما بالصابغية وآخر بالمصبوغية أولى من العكس - ومنها أن تكوين الذهب الطبيعي إنما يحصل في سنين كثيرة بإنضاج وطبخ من حرارة الأرض على وجه مخصوص بمواد مخصوصة، ومراعاة الإنسان النار في عمل الذهب على هذا النظام مما لا يفي به علم البشر، ثم إذا كان تكوينه بالقدرة القديمة على الوجه الطبيعي إنما يحصل في سنين فكيف يتكون بالقدرة الحادثة في مدة يسيرة؟ قال الطبيعيون: إن الزئبق إذا كمل نضجه في الأرض جذبه إليه كبريت

المعدن فأجنه وأخفاه في جوفه لئلا يسيل سيلان الرطوبات، فإذا اختلطا واتحدا وذابت الحرارة انعقدا عند ذلك ضروباً من المعادن التي يسمونها الفلزات وهي السبعة الآحاد الذائبة الصابرة على النار المنطرقة، فإن كان الزئبق صافياً والكبريت نقياً واختلطت أجزاؤهما على النسبة وكانت حرارة المعدن معتدلة لم يعرض لها عارض من البرد واليبس ولا من الملوحات والمرورات والحموضات انعقد من ذلك على طول الزمان الذهب الإبريز وهذا لا يتكون إلّا من الأحجار الرخوة والبراري الرملة، وبذلك يتضح عندك أن قوة الإنسان قاصرة عن إيجاد مثل ذلك مادة وكيفية. ويزيد ذلك وضوحاً أن المذكور في كتب الكيمياء إنما هو رموز. فلو كان لها حقيقة لصرحوا بها، فقد صرح العلماء بما هو أنفس من ذلك وأجل قدراً مما كان له حقيقة، ولا أقول كحل المشكلات والجمع بين الأحاديث الصحيحة والنكات القرآنية الشريفة لئلا يكون تخليطاً في البحث فإن البحث إنما هو في الأمور الدنيوية بل ككتب ابن وحشية وغيره في الطلسمات الصحيحة والفلاحة النافعة، وأنواع من السحر هي في بابها كفلق الصبح وفي نفاستها كالكيمياء أو فوقها، فلا يصح التعليل بأنهم إنما كتموها تمويهاً وزرفاً[1] وعجزاً عن تصوير ما لا حقيقة له، أو توهماً كاذباً وتخميناً طمعياً والله أعلم.

وأما المطالب فلا بحث في إمكان أن يجد الشخص دفيناً جاهلياً أو إسلامياً على الاتفاق والصدف، إنما البحث في أن تحت الأرض مساكن وعمارات مبنية وفيها كنوز وأموال عظيمة وعليها موانع وطلسمات، ولتلك الموانع طرق تزول بها وعلى تلك المطالب علامات وإمارات يتوصل بها إلى أمكنتها ويستدل عليها بها، فهذا من مخارق المحتالين وأماني المفلوكين، ولا دليل لهم فيما يروجون كذبهم به من أن في القرون السالفة من كان يعتقد العود إلى الدنيا فيدخر ماله لذلك لما سنبينه - والدليل على أن المطالب لا حقيقة لها وإنما هي من المطامع الفارغة والمخارق والخديعة أن ادخار الأموال العظيمة على هذا الوجه المخصوص إما أن يكون لغرض أو لا لغرض، والغرض إما دنيوي أو أخروي، والأقسام الثلاثة باطلة وما أدى إلى الباطل فهو باطل، فالقول بوجود المطالب باطل - بيانه أنه لا جائز أن يكون ادخار المال في الأرض لا لغرض بأن يوضع تحت الأرض عبثاً لتأكله الأرض ويذهب سدى، فإن ذلك خلاف

(١) في القاموس زرف في الكلام زاد فيه.

صريح العقل لما أن الذهب والفضة هما قيم الأشياء وجوهر الثمنية وأسباب المطالب، ولا جائز أن يكون لغرض أخروي لأن شريعة الإسلام ليس فيها ما يدل على مطلوبية الادخار والكنز ونيل الدرجات في الآخرة بسببه، بل هي ناهية عنه وآمرة بصرفه في وجوه القربات والخيرات، وأصحاب الملل غيرها منهم من ينكر المعاد الجسماني على القطع ومنهم من تردد فيه، وهؤلاء لا يجوز أن يدخروا المال لأمر أخروي لما أن أخروياً من غير اعتقاد الآخرة محال وذلك كعبدة النجوم والصابئة والنصارى على ما قاله الأصفهاني في شرح الطوالع في الكلام على المعاد الجسماني وإن كان فيه نظر، وأما من يقول بالأدوار والتناسخ كعبدة الأوثان فالكلام في عدم ادخارهم كالكلام على القسم الثالث ـ وأما القسم الثالث وهو أن يكون الادخار لأمر دنيوي يعود على المدخر لاعتقاد عوده إلى الدنيا فهو أيضاً باطل لأنه لو كان كذلك لبالغوا في إخفائه وسد طريق العلم به. لكنا قد فرضنا له علامات وأمارات يعرف بها هذا خلف.

وأما عدم إفضاء حرفة الشهادة إلى المقصود فذلك لأن الحرف والصنائع على قسمين: قسم يلزم من العلم به وإجادته الحصول على ثمرته، وقسم لا يلزم بل لا بد من ضميمة أخرى، ومنه حرفة الشهادة وسائر الحرف الهوائية الغير المعيشية، وينبغي أن يسمى معاشاً غير طبيعي وهذه لا وثوق بإفضائها إلى المقصود ـ وبيانه فيما نحن بصدده وهو الشهادة أن حقيقة حرفة الشهادة ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقاصد المشهود له وعليه بلفظ صحيح متعارف مستوف لمقاصدها بشروط شرعية، وعلى إفراغ مقاصدهما في قالب شرعي إن كانت غير شرعية، وغايته تحويل عبارة المشهود له وعليه العامية إلى عبارة ترتضيها العلماء وتحويل تصويرهما الفاسد إلى صورة شرعية، ثم لا يلزم من تحصيل هذه الملكة وإجادتها الحصول على ثمرتها والرواج فيها بخلاف القسم الأول من الحدادة ونحوها، فإن من علمها وأجادها حصل على ثمرتها. وحكم سائر الحرف الهوائية كالدلالة والنقابة في عدم إفضائها بالعارف بها إلى مقصودها حكم الشهادة ولك أن تجعل ذلك حداً رسمياً للحرف الهوائية فيقال في حدها حرفة لا يلزم من العلم بها وإجادتها الحصول على ثمرتها ـ والحاصل أن لحرفة الشهادة موانع من حصول ثمرتها والمقصود منها ولها مفاسد ونقائص عاجلة ومضار أخروية آجلة ـ فأما الموانع فأمور: منها أن حرفة الشهادة من قبيل الاحتراف

بالعلم والعلم كما سيجيء تحقيقه في الفصل الخامس أقبل شيء للخفاء والجحد والجهل بقدره من صاحبه، وأقبل شيء للإضافة إلى غير أهله بالحظ والجاه والتلبيس وسكوت معور عن معور، وإذا كان كذلك فقد يدور الرواج في الشهادة مع الهيئة والزي الظاهر واللباس الفاخر، ويخفى مكان الاتصاف بحرفة الشهادة على التفسير السابق فيفوت الرواج بفوات الهيئة واللباس وهناك ينشد:

أرى ثياباً ولكن حشوها بقر * بلا قرون وذا عيب على البقر

ـ ومنها أن مبنى حرفة الشهادة على العوام وهم مربوطون بأوهامهم، وواقفون مع مألوف عاداتهم، ولا تمييز لهم بتفهم كتابة وكتابة، والتقليد وظيفتهم وذاتي لهم فلا يستعملون في وثائقهم ومكاتيبهم مجهولاً لهم لتوهمهم فيه إفساد مكاتيبهم، ويلزم من عدم استعمال المجهول استمراره على خموله ومجهوليته أبد الآبدين ودهر الداهرين ـ ومنها أن مبنى الرواج على الشهرة، والشهرة إما بقدمية أو بتشهير مقبول القول، فأما القدمية فليس المراد بها طول الإقامة في مكان بل كثرة الكتابة التي للشاهد في أيدي الناس المحركة لدواعيهم في استعماله التي يستلزم بعضها بعضاً والدخيل خال عن ذلك، وقدمنا أن الشخص المجهول لا يستعمل والمكث المجرد عن الكتابة لا يفيد شيئاً حتى لو أقام الدخيل أبد الآبدين في مكان لا يستكتب فيه لم يكن بينه في الجهالة والخفاء والإهمال والجحد فرق البتة ـ وأما تشهير مقبول القول فأعز من بيض الأنوق ومن تصحيح الإكسير[1] وما أحق هذا بقول القاضي الجرجاني:

إذا لم يكن في الأرض حر يعينني * ولم يك لي كسب فمن أين أرزق

ـ ومنها أن الحرفة هوائية صرفة، وصرفها عن الدخيل والأجنبي الذي لا زبون له بالمواطأة والحيلة والاعتذار والشعوذة والدك من أدخل الأشياء تحت الإمكان، لا سيما وأهلها بطرق اللؤم أهدى من القطا مع ما لهم من القسوة والقحة وغلظ الأكباد أحسن الله خلاصنا من أيديهم ـ وأما المفاسد والنقائص العاجلة فلأن الشهادة في هذا الزمان تستلزم النذالة والسفالة والدناءة وسقوط الهمة وموت النفس والشح

---

(١) الإكسير الكيمياء وقد أقام المؤلف البرهان على عدم صحتها فتنبه.

والقحة، وتؤدي إلى التباغض والتماقت والتقاطع والتدابر والتحاسد يتقاسمون الفلس والفلسين، ويتغاضبون على الحبة والحبتين، ويتراضون بالدرهم والدرهمين، ويسرقون ويختلسون قال عمر بن الوردي من أرجوزة طويلة في ذلك:

يغيب الأشغال من أبيه * ويسرق الأجرة من أخيه

ويحلفون بالطلاق والعتاق على ما كذبهم فيه أظهر من الشمس، فضلاً عما يحتمل الكذب ويعدّون ذلك استرضاء وعقلاً، ويتهافتون بسرعة القيام للأشغال ويعدونه حذقاً وكيساً ويوسعون الدخيل حرماناً وشعبذة ويعدونه دهاء وكيساً. وقد قلت في تهافتهم ومبادرتهم القيام:

بليت به جهولاً جاهلياً * ثقيل الروح مذموماً بغيضا
ولم يك أكثر الإخوان علماً * ولكن كان أسرعهم نهوضا

وأما المضار الأخروية فمن وجوه: أولها حضور الأنكحة مع عدم الاستظهار في شروطها من انقضاء العدة والأولياء والكفاءة وغيرها، وعلى الجملة فالإقدام على عقد من غير معرفة حكمه حرام، ثم بتقدير وجود الشرائط فمعهم من أنفسهم المفسد الأعظم وهو فوات العدالة لما أن كل واحد يعرف من نفسه ما لا يعرف من غيره، والعدالة عند الشافعية عبارة عن عدم مباشرة الكبائر والإصرار على الصغائر مع المروءة، وأين من يجمع هذه الثلاثة مع خطر النكاح وكثرة ما يترتب عليه من الأحكام من التوالد والتوارث وانتشار النسب إلى عدد كثير، وما يترتب على ذلك المنتشر من الاحكام ووجوب ما لا يجب إلاّ بالنكاح وحل ما لا يحل إلاّ به إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة - وثانيها أن شركة الأبدان القائل فيها قائلان: قائل بعدم جوازها البتة كالشافعي، وقائل بجوازها كالحنبلي والحنفي وليس لنا قائل بوجوبها، وأن اثنين ينعقد بينهما شركة الأبدان بغير اختيارهما. ومبنى شركة الشهود غالباً على الإكراه فقلما يقع بين الشهود شركة أبدان صحيحة بالتراضي بل كل منهم لا يريد الآخر ولا الكتابة معه، ويمنعه من ذلك موانع هي إكراه أو في معنى الإكراه، ويكتب أحدهما مائة سطر والآخر يكتب اسمه ويتقاسمان على السواء ولا شركة بينهما قائمة، فيصير الكسب كله حراماً مع أن أكل الحرام مما يظلم القلوب ويمنعها من دخول الحكمة فيها - وثالثها أنه يجب على كل أحد علم ظاهر صناعته كما ذكره الشافعية في كتب

الفقه أول كتاب الجهاد، فيجب على الصيرفي مثلاً معرفة أن بيع درهم بدرهمين مثلاً حرام وغير ظاهر صنعته كباقي مسائل الربا التي لا يكثر دورها لا يجب عليه تعلمه، وإذا وقع له شيء منه سأل عنه العلماء، وقياسه أن كل شاهد يجب عليه أن يعلم شروط الرهن والبيع والكفالة والاقارير لأن هذه الأشياء كثيرة الدور وباقي مسائل هذه الأبواب يسأل عنها المفتي إذا وقع له، فحينئذ من ترك من الشهود معرفة هذه الأشياء كان عاصياً ويتكرر عصيانه كل يوم، ويترتب على ذلك ما لا يخفى - وأيضاً كثيراً ما يكتب الشهود في الشهادة على من لا يعرفونه وقد عرفه شهوده وهو كذب لأن المعرفة لا تحصل بالنظرة ولا بالمرة، ويتكرر هذا الكذب بتكرر الشهادة على المجاهيل ويترتب على ذلك ما لا يخفى - ورابعها تضييع الحقوق بالجهل فرب من يكتب شيئاً ويزيد فيه كلمة أو ينقص كلمة، أو يصور صورة يترتب عليها مفاسد شرعية وهو بجهله لا يعلمها ولا يصح الاعتذار عن ذلك بأن الكلمة الزائدة أو الناقصة هكذا تحملها لأن ذلك بتسببه وتوريطه المشهود له، وعليه في ذلك بتقليدهما إياه ظناً منهما أنه أهل للتقليد - وخامسها التدليس باسترعاء المشهود عليه بكلمات الفقهاء التي تقصر عن إدراك غوائلها ودسائسها أفهام العوام من غير أن يعرف العوام ما وراء ذلك من الغور، مع القطع بأنه لو شرح له ما في ذلك من الفساد لما أقدم عليه. ولا يصح أيضاً الاعتذار عن ذلك بأنه هكذا تحمل وهكذا استرعاه لأن هذا مما لا ينفع عند العليم الخبير - وسادسها أنهم يكتبون في كتب الأوقاف كلاماً طويلاً تلقوه عمن تقدمهم من غير أن يعرفوا معناه، فضلاً عن الواقف المشهود عليه بدليل أن العلماء فضلاً عن المورّقين تدور رؤوسهم في ثاني الحال في فهم المراد منه، والواقف لم يتلفظ به ولا بمعظمه، ولو قرئ عليه لم يفد لاستحالة إرادة معنى شيء بدون فهمه - على أن الانشاءات لا بد فيها مع اللفظ من فهم المعنى بدليل أن الأعجمي لو لقن الطلاق بلا فهم فأوقعه وأراد معناه عند العارف بمعناه لم يقع، وعلى الجملة فشهادتهم على الواقف بما نسب إليه فيه وهو لم يفهمه مشكلة جداً، بل وينشأ من عباراتهم الفاسدة الناشئة عن الجهل حرمان من لعل الواقف لم يرد حرمانه لو روجع فيه ودخول من لم يرد دخوله - وعلى الجملة ففي هذا الموضع نظر ظاهر فليتأمل. وسابعها تصريح العلماء من الشافعية والحنفية بأنه لا يشهد على خطه ما لم يتذكر الواقعة، فأما القضايا التي يكون للشاهد فيها مدخل أو يكون هو المورّق وله في عباراته وكتابته ما يذكره

بالقضية فلا كلام فيها، ولكن ثم من القضايا ما يستحيل التذكير فيه عادة كالشهادة على الحكام في ظهور السجلات مع طول المدة، وما في معنى ذلك فليستفت الشاهد قلبه في ذلك فإنه من مزال الأقدام ـ وثامنها الاكتفاء في الشهادة على الحكام في السجلات الطويلة والمحاضر وصور المجالس الطوال بقول الحاكم له نعم جواباً لقول الشاهد له أشهد عليكم بما فيه من غير أن يقرأه عليه، بل ولا يعرف الشاهد ما فيه لا إجمالاً ولا تفصيلاً. وقد قال فقهاء الشافعية في كتاب القاضي للقاضي أنه لو لم يقرأ على الشاهدين وقال الحاكم لهما: أشهدكما عليّ أنه كتابي أو أن ما فيه خطي لم يكتف بذلك ـ وتاسعها رفع الشهود نسب من لا يعرفون نسبه مع أن ذلك شهادة بنسبه ضمناً كما قاله السبكي في جمع الجوامع في الكلام على أن مورد الصدق والكذب إنما هو النسبة التي تضمنها الخبر لا واحد من طرفيها، ولو سلم أن ذلك ليس شهادة بالنسب لا أصلاً ولا ضمناً فقد قال الإمام كما نقله عنه في الروضة والرافعي: أنه لو لم يعرف المشهود عليه إلّا باسمه لم يتعرض في الشهادة لاسم أبيه ـ هذا ما رأيت أن أذكره مما قوي عندي مما حضرني في هذا المقام من موانع حصول المقصود من حرفة الشهادة ومفاسدها، ووراء ذلك غور لا يمكن التصريح به، ورأيت أن الإمساك عنه أولى وما أحق ذلك بقول القائل:

في النفس أشياء لا أسطيع أذكرها * لو قلتها قامت الدنيا على ساق

والله المسؤول في الخلاص منها، وإليه أضرع وعليه أتوكل.

الفصل الخامس

(في أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب في ذلك)

وإنما كانت الفلاكة ألصق بهم غالباً من غيرهم لأمور: منها أن الإمارة عنهم بمعزل والتجارة مبنية على السفسفة والمماحلة[1]، والآمال التي لا يقوم دليل على وقوعها والفلاحة والصناعة يلزمها المهانة والتلوث برذائل الحيل الدنيوية، وأهل العلم لهم أنفة واستنكاف عن ذلك فيقعدون عن الاكتساب متعللين بالأماني الكاذبة فيقعون في الفاقة والإملاق ـ ومنها أنهم يحسنون ظنونهم في الناس على مقتضى ما يتوهمونه في أنفسهم من استحقاقها لذلك، ويبنون على ذلك رفيعاً ويحاولون منيعاً، والناس لا سيما أهل عصرنا لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزناً، فيبنون ظنونهم على شفا جرف هارٍ وتأتي الحوادث بنيانهم من القواعد فتجتثه ويعودون بآمال خاسرة وظنون كاذبة ـ ومنها أنهم لاعتيادهم القواعد الكلية والخوض في الأنظار الدقيقة يطردون معظم الأشياء كلياً حرماناً وحصولاً، ويقيسون الأشياء على أشباهها على طريق قياسهم الفقهي، ويلحقون بعض الوقائع ببعض على سبيل إلحاق النظير بالنظير والقياس التمثيلي. والقضايا وإن تناسبت أو تساوت من وجه فقد تختلف من وجه آخر أو من وجوه أخر تخفى على غير المهرة في أحكام الدنيا ودقائقها، أو لخصوص في المادة أو لوجود مانع أو فوات شرط أو لكون تلك القاعدة المأخوذ منها حكم ذلك الفرع ليست كلية في نفسها بل أكثرية، وذلك الفرع من غير قسيم الأكثر وهم عن ذلك كله غافلون، والقواعد العلمية التي يعرفونها تقضي عليهم بتصحيح الأقيسة والوثوق بها، فيطردون معظم الأشياء كلياً

---

(١) ماحله مماحلة ومحالاً قاواه حتى يتبين أيهما أشد اهـ. قاموس. والغرض أن التجارة مبنية على المماكسة.

حرماناً وحصولاً، تأليفاً وتنفيراً، تقريباً وتبعيداً، إهمالاً ومراعاةً فيخبطون لذلك خبطاً عظيماً، ويخطئون السياسة أصلاً ورأساً. والكيس من العامة والهمج لا يعرف الكليات ولا الأقيسة والعمل بها، ولا إلحاق الأشياء بنظائرها ولا قياس العكس والخلف والملازمات، فينظر في الجزئي الذي هو بصدده نظراً خاصاً غير مشوّش بما يفسده ويتفقه فيه مانعاً وعائقاً، ويجسره على ذلك صحة الجزم وعدم التردد وما ينشأ من كثرة الاحتمالات من الفتور والتواني وضعف العزيمة، فتنجح مساعيهم ويصيبون في ظنونهم غالباً ـ ومنها أنهم لبعد غورهم وغوصهم يفرضون محتملات بعيدة ويجزمون بوقوعها وثوقاً منهم بظنونهم وافتتاناً بأنفسهم، وما من شيء إلّا ويطرقه الاحتمال المثبط عن إمضائه واستقامته، فيتخلفون لذلك عن مظان الخير والتعرض لتنفيسات الدهر وغشيان أهل الجاه، فيقعون في الفلاكة والاهمال ـ ومنهاوهومختص بأصحاب علوم الأوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب وكلام الأقدمين والتصوف الممزوج بالفلسفة والمتبحرين في التشكيكات والشبه، وعلى الجملة فمن تضلع من هذه العلوم وحدها ولم يكن له خدمة لما في الكتاب والسنة من الأحكام والمعارف، ولا تضلع من الفقه ولا نظر نظراً تاماً في كلام العلماء الكبار المتشرعين فإنه يخرج بهاء الشريعة وجلالها ومهابتها وتعظيم ما فيها من قلبه، فيسترسل في اللذات محرمة كانت أو جائزة، رذيلة خسيسة كانت أو غير منفرة، ويستثقل الإتيان بالمأمورات فيتركها طلباً للراحة والدعة. وأرزاق العلماء مبنية على التماس بركتهم والاستنجاح بأدعيتهم وترفيعهم عن رذيلة الاحتراف والاكتساب الجائزين، فمتى لم يرفعوا أنفسهم عن الرذائل المحرمة، ولم يكن لدعائهم عمل صالح يرفعه، ولا على شمائلهم شواهد البركة انكف الناس عن إسعافهم بمرادهم، وأخذوا في طعنهم وتنقيصهم وربما رموهم بالزندقة والإلحاد فتستحكم الفلاكة فيهم، والفلاكة كالبرص في الجسد تنتشر فيه وتسري وتتزايد ما لم تجد دواءً حاسماً مانعاً له من السريان ـ ومنهاوهو مختص بأصحاب علوم الأوائل أيضاً أنهم يرون أن لا كمال إلا التحلي بالمعارف، والاطلاع على النكات والحقائق، والوقوف على الأسرار والدقائق. وأن الكمالات الخارجانية من المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها، ويمكن أخذ ذلك والاستدلال عليه بقول عز الدين الحسن بن محمد الاربلي الضرير الفيلسوف:

كمل حقيقتك التي لم تكمل والجسم دعه في الحضيض الأسفل
أتكمل الفاني وتترك باقياً هملاً وأنت بأمره لم تحفل
الجسم للنفس النفيسة آلة ما لم تحصله بها لم يحصل
يفنى وتبقى بعده في غبطة محمودة أو شقوة لا تنجلي
أعطيت جسمك خادماً فخدمته ونسيت عهدك في الزمان الأول
ملكت رقك مع كمالك ناقصاً أتملك المفضول رق الأفضل

وبقول أبي الفتح البستي والغزالي رحمه الله كثير اللهج به في كتبه:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته وتطلب الربح مما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل سعادتها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وبقول الفارابي محمد بن محمد بن طرخان الفارابي المتوفى سنة ٣٣٦:

أخي خل حيز ذي باطل وكن للحقائق في حيز
فما الدار دار مقام لنا وما المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
وهل نحن إلاّ خطوط وقعن على نقطة وقع مستوفز
محيط السموات أولى بنا فما ذا التنافس في المركز

وإذا كان الكمال الخارجاني متلاشياً في أنظارهم على ما تقرر فهم لا محالة لا يعطون له بالاً، وهو لعسره لا يتم مع الفكرة في تثميره فكيف مع إهماله وعدم الاعتناء به وإلقائه وراء الظهر ـ ومنها أن العلوم خرجت عن كونها حرفاً وصناعة من الصناعات بعد مصيرها صناعة من قبل على ما سيجيء تحقيقه والاستدلال عليه في الفصل السادس بعد هذا الفصل، وإذا كان كذلك فكيف العمل على شريعة منسوخة والوصول بسلوك سبيل قد سد والاستضاءة بمصباح قد طفيء؟ ـ ومنها أن رواج العلماء إنما هو لعلمهم كما أن رواج أرباب الحرف إنما هو لحرفهم، ولكن العلم بطيء الحصول وليست كل الطباع تقبله، والجزء الغالب عليه الوهب من الله لا الكسب، فطائفة من العمر تنقضي في تحصيل متنه، وطائفة من العمر ثانية تنقضي في تصوره وأخذه عن الشيوخ، وطائفة ثالثة في تحقيقه. ثم بعد ذلك كله فصفة العلم ليست من الصفات المحسوسة الظاهرة كالحسن والقبح، ولا مما يدخله الكمية

والمقدار المحسوس ليعرف التفاضل فيه بالذراع والشبر وقياس أحد المطلوبين على الآخر، ولا الدال على صفة العلم وهو البيان والنطق ظاهراً مكشوفاً لكل أحد كالشجاعة التي يعرف بها القوي من الضعيف بالافتراس والإلقاء على الأرض، وكالإجادة في المصنوعات المرئية المشاهدة بل صفة العلم من الصفات النفسانية والكمالات الحاصلة بقوة النفس الناطقة والقوى الباطنة، فهي قابلة للجحد والإنكار والمدافعة والتغطية عليها عند أهلها، وقابلة أيضاً لأن يدخل فيها غير أهلها بالتلبيس والتصنع والتمويه والجاه، ويعين على خفائها وجهل الناس بمكانها من صاحبها وقبولها للتصنع والتمويه أن العلم مستدع لفاهمة وحافظة وقل أن يجتمعا في شخص، وذلك لما أن القوة الحافظة من مقدم الدماغ والقوة الفاهمة مما يلي مؤخر الدماغ في وسطه، وبقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكانين. وإن شئت قلت: إن البطن المؤخر من الدماغ محل الاسترجاع والتذكر، والبطن المقدم محل التخيل، وبقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكانين، أو لأن الفهم يستدعي مزيد رطوبة في الدماغ، والحفظ يستدعي مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الإمام فخر الدين الرازي في كتابه المصنف في مناقب الشافعي ناقلاً له عن الحكماء. وإن من العلماء من له قلم وكتابة وليس له بيان ولا جدل لأن مزاجه يتغير بالمماراة والمدافعة غضباً أو حياء ويضيق قلبه انفعالاً عن ذلك، فيحصل الحبسة في لسانه بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه أو لعدم دربته[1] ومهارته بالبحث أو لعيّه وحبسته، أو لأن في العلم والكتابة استعانة على تشييع القوة النفسانية وضبطها عن التشتت، وهذا مستمد مما ذكره الحكماء في كتبهم من أن نفوس الكهان لما ضعف استعدادها تشبثت بأمور جزئية تكون مشيعة لها ومانعة من تشتتها كالسجع ورؤية الماء وسنوح سانح. ومنهم من له بيان وجدل ولا قلم ولا كتابة له إما لفصاحته مع عدم وقوفه على حقائق العلوم، وإما لفساد تراكيبه إهمالاً واحترازاً وإن كان واقفاً على حقائقها، والقلم يضبط العيوب ويكون شاهداً عليه بخلاف العبارة لإمكان المكابرة والاعتذار فيها، وإمكان تغييرها عند المضايقة، وإما لدربته ومهارته في البحث وحسن انتقاله فيه

---

(١)الدربة بالضم هي الضراوة والاعتياد على الشيء. والحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته. والعي العجز عن النطق اهـ. ملخصاً من القاموس.

وتغطيته على جهله وقلة مبالاته. وإن من العلماء من يزيد علمه على عقله فلا يحسن الغطاء على مجهولاته ولا الاعتذار عنها مع أن مجهولات الإنسان أكثر من معلوماته بل لا نسبة لمعلوماته إلى مجهولاته، ومنهم من يزيد عقله على علمه فيضع الأشياء في حاقّ[1] مواضعها ويضيف إليها رونقاً وبهاءً وتهويلاً وتوهيماً، وإن من العلماء من له صوت لإهماله والبكاء صغيراً لفقر أهله أو لتسليط البكاء عليه في المهد، والمخارج رطبة لينة فيفتح العياط لهواته، وتتسع مجاري صوته وتتصلب أوداجه. ومنهم من لا صوت له لعدم ذلك ومن لا صوت له مغلوب عاجز عن المباحثة حتى أن بعض الناس علمه صوته وفخره نغمه وما أحق هذا المقام بقول القائل:

فقلت لمحمد لما التقينا * تنكب لا يقطرك الزحام[2]

وإن من العلماء من له علم بلا جاه ولا وجاهة فلا يمكنه المقاومة، ويتلعثم لسانه ويتغير للإجلال، ويدافعه الوهم ويقول فلا يلتفت إليه أو يرد عليه رداً جاهياً تقبله العامة ولله در القائل:

إذا التقى الخيل في معسكرها فكيف حال البعوض في الوسط

والقائل:

حياة بلا مال حياة ذميمة وعلم بلا جاه كلام مضيع

ومنهم من له جاه وحاله في ذلك ظاهر لا يحتاج إلى الكلام عليه. وإذا تقرر لك ذلك كله علمت أن العلم أقبل شيء للخفاء والجحد والتلبيس والتصنع، وكيف الرواج بحرفة مجحودة أو خفية أو يشارك فيها بالتلبيس والتمويه ـ ومنها أن ما في أيدي الناس إنما هو ثمرة أموالهم وتكسباتهم بأعمالهم، حتى لو فرضنا شخصاً خالياً من المال والتكسب لم يكن إلّا شحاذاً مكدياً، وعلى قدر احتياج الناس إلى نوع ذلك المال ونوع ذلك التكسب يكون نفاقه بينهم، وبقدر نفاقه[3] تعظم ثروة صاحبه وغناه،

---

(١) في القاموس وحاق الجوع (أي بتشديد القاف) صادقه، ورجل حاق الرجل وحاق الشجاع وحاقتهما كامل فيهما ا هـ.

(٢) أي اعدل عن طريقي لئلا تصرعك مزاحمتي اهـ.

(٣) النفاق بالفتح رواج الشيء، وبالكسر المداهنة والخداع. ومراد المؤلف الأول كما هو واضح، اهـ.

فلذلك لا تعظم ثروة أصحاب منصب القضاء والفتوى والتدريس غالباً وذلك لعدم احتياج جمهور الناس إلى ما بأيديهم احتياجاً لازماً لا مندوحة عنه لما أن الأمور المفتقرة إلى القضاء تنفصل بغير قضاة تارة لرجوع المبطل عن عناده لوازع دين أو عار أو خوف مترقب أو نحوها، وتنفصل بالسياسة وبوجوه الناس تارة أخرى، ولما أن العلوم مباينة لطبائع البعض ومهجورة عند البعض ومستثقلة على البعض.

الفصل السادس

(في مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات)
(ليس إلّا بعد كونها صناعة من جملة الصناعات وحرفة من الحرف)

هذه الدعوة مركبة من ثلاثة أمور: الأمر الأول أن العلوم كانت حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع. الأمر الثاني أن العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة وزال منها معنى الاحتراف والصنعة. الأمر الثالث كونها كمالات وطاعات، وبيان ذلك يفتقر إلى مقدمتين: المقدمة الأولى أن هذه الشريعة ناسخة لجميع الشرائع وأحكامها باقية بقاء الدهر، ثم إن الأحكام كلها متلقاة من الله تعالى ولا مدخل للعقل في إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما، ولذلك قيل في حد الحكم الشرعي خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير، فقيل خطاب الله لما أن السنة والإجماع والقياس ترجع إليه بالآخرة. والكتاب والسنة والحكم الشرعي مفتقر إلى العلوم بأسرها ـ وبيانه أنه بالنظر إلى المفرد الذي يستدل به وصحته في حالة إفراده يفتقر إلى علم الصرف، وأن النظر في صحة التركيب يفتقر إلى علم النحو وفي تطبيق اللفظ على مدلوله يفتقر إلى علم اللغة، وفي إظهاره وإضماره والتفاته وتقديمه وتأخيره ونحوها مما يرجع إلى مطابقة اللفظ لمقتضى الحال إلى علم المعاني، وفي حقيقته ومجازه وكنايته واستعارته ونحوها مما يرجع إلى إيراد العلمين الى علم البديع وبالنظر في خاصه وعامه ومطلقه ومقيده ومجمله ونحو ذلك إلى المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة إلى علم البيان، وبالنظر إلى توابع هذين طائفة من علم أصول الفقه وفي مواقع القرآن إلى أسباب النزول وفي استيضاح معانيه إلى علم التفسير، وفي نزوله على حروف متعددة إلى علم القراءات، وفي الاستدلال به وترتيب الأدلة إلى علم المنطق والجدل وآداب البحث، وفي الأحكام المستفادة منه وبواسطته إلى الفقه، وفي استنباط الفقه إلى أصول الفقه ـ وأن النظر في السنة يستلزم علم رواية السنة وحفظها، وعلم الجديث والناسخ والمنسوخ وأسماء الرواة وكناهم وألقابهم

ومشتبه أنسابهم وجرحهم وتعديلهم ووفاتهم والأخبار والقصص ـ وأن النظر في الشارع يفتقر إلى علم الكلام، ثم إن العلوم بعضها مربوط ببعض ومتعلق به إما على سبيل الاستلزام أو على سبيل الاستمداد وهذه العلوم المذكورة تستلزم جملة من علوم الحكماء والأوائل ولو بواسطة أو وسائط كاستلزام الفقه بواسطة الفرائض والإقرارات المجهولة علم الحساب وهو الارتماطيقي وعلم الجبر والمقابلة، وبواسطة اختلاف أحكام الوصية وما في معناها بالمرض المخوف وغيره وإباحة التيمم بالمرض ونحوه إلى علم الطب، وكاستلزام علم الكلام للطبيعة والرياضة والمنطق، وكاستلزام تعيين معرفة القبلة على كل واحد في رأي الرافعي، أو على مريد السفر في رأي النووي وهو من الفقه معرفة طائفة من الهيئة وكذلك معرفة دخول الوقت واستلزام الاستشهاد بالشعر في النحو والتفسير علم العروض، وعلى هذا القياس قس تجد العلوم مرتبطة بعضها ببعض بالاستلزام أو الاستمداد ـ المقدمة الثانية أن الحفاظ للقرآن بكماله في عصره ﷺ معاذ بن جبل وأبو زيد سعيد بن عمر الأنصاري وأبو الدرداء عويمر وزيد بن ثابت، وفي قول وعثمان بن عفان وتميم الداري وعبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري. وأصحاب الإفتاء في عصره ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وأبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري. ثم انتهت أصول العلم إلى عبد الله ابن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس، فأخذ عن ابن مسعود ستة: علقمة والأسود وعبيدة والحارث بن قيس ومسروق وعمرو بن شرحبيل. وأخذ عن زيد بن ثابت أحد عشر رجلاً ممن كان يتبع رأيه ويقتدي بقوله: قبيصة بن ذؤيب وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وسعيد بن المسيب وأبّان بن عثمان وسليمان بن يسار ـ وأخذ عن ابن عباس ستة: سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعكرمة ومجاهد وجابر بن زيد وطاوس هكذا رواه أبو بكر الخطيب بإسناده عن علي المديني. وروى الحاكم أبو عبد الله عن أبي العباس الأصم عن العباس الدوري قال: انتهى علم الصحابة إلى ستة: عمر وعلي وابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت انتهى ـ وانتهت أصول الرواية إلى ستة: أبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وأبي سعيد الخدري

وعائشة. وانتهت أصول الأخبار والقصص إلى ستة: عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه وطاوس اليماني ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدي - وانتهت صناعة التفسير إلى ستة: عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك والسدّي هكذا ذكر هذا كله جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي في كتابه المسمى تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، ثم صار الأمر من بعده ﷺ إلى أبي بكر الصديق واسمه عبد الله بن عثمان بويع له في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة، ثم بويع له البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وتوفي لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلاّ عشر ليال. ثم استخلف عمر بن الخطاب يوم وفاة أبي بكر بنصه عليه، ثم قتل لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام. ثم استخلف عثمان بن عفان أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين وقتل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت مس ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأياماً. ثم استخلف علّي بن أبي طالب وقتل في رمضان سنة أربعين في يوم الجمعة، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وأياماً، ثم بايع الناس الحسن بن عليّ يوم موته فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يوماً، ويقال: أربعة أشهر ثم كره سفك الدماء فتخلى عن الأمر لمعاوية وانخلع وبايعه في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، فانتقل الأمر إلى بني أمية وخلص لهم ثنتين وثمانين سنة ألف شهر وعدتهم أربعة عشر رجلاً أولهم معاوية وخلافته سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ومدة ولايته نحو من ثمان سنين، وبعد معاوية يزيد بن معاوية وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرين، ثم بويع لابنه معاوية بن يزيد فمكث أربعين ليلة ثم مات وقيل: خلع نفسه لصعوبة الأمر عليه، ثم بويع لعبد الله بن الزبير بمكة لسبع خلون من رجب سنة أربع وستين، ثم قام مروان بن الحكم بالشام بعد بيعة ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام وذلك في المنتصف من ذي القعدة سنة أربع وستين، ثم مات في رمضان سنة ٦٥ فكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً فقام مقامه عبد الملك ابنه وجهز العساكر مع الحجاج ابن يوسف لقتال ابن الزبير، وقتل ابن الزبير في المسجد الحرام بمكة يوم الثلاثاء

لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وكانت ولايته تسعة أعوام وشهرين ونصفاً. ثم ولي الوليد بن عبد الملك وتوفي سنة ٩٦ فكانت ولايته تسع سنين وخمسة أشهر. ثم استخلف أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفي سنة ٩٩ فكانت خلافته ثلاث سنين إلّا أربعة أشهر. ثم استخلف عمر بن عبد العزيز وكانت خلافته سنتين وحمسة أشهر وخمسة أيام. ثم استخلف يزيد بن عبد الملك، وكانت خلافته أربع سنين وشهراً. ثم استخلف أخاه هشام بن عبد الملك ، وكانت ولايته تسعة عشر عاماً وسبعة أشهر وعشرة أيام. ثم استخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكانت خلافته سنة وشهرين. ثم استخلف يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم بويع أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك. ثم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وقتل سنة ١٣٢ هجرية. ثم انتقل الأمر إلى بني العباس بن عبد المطلب عم النبيّ ﷺ فتولى أبو العباس السفاح واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في ربيع الأولى وقيل الآخرة سنة ١٣٢ وتوفي في ذي الحجة سنة ١٣٦، فكانت خلافته أربع سنين وعشرة أشهر. ثم تولى بعده أخوه المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد، وكان أكبر سناً منه وحج فتوفي لسبع خلون من ذي الحجة سنة ١٥٨ ، فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً. ثم ولي المهدي بن محمد بن عبد الله بمكة وتوفي لثمان بقينَ من المحرم سنة ١٦٩ وكانت خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يوماً. ثم ولي ابنه الهادي موسى بن محمد وكانت خلافته أربعة عشر شهراً وإحدى وعشرين يوماً. ثم ولي بعده أخوه الرشيد أبو جعفر هارون بن محمد فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوماً. ثم ولي بعده ابنه الأمين أبو عبد الله محمد بن هارون وقتل في المحرم سنة ١٩٨ وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأربعة وعشرين يوماً. ثم ولي أخوه المأمون عبد الله بن هارون في المحرم ومات ببلاد الروم لثمان خلون من رجب سنة ٢١٨ فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ثم تتابع العباسيون واحداً واحداً إلى أن ختموا بالمستعصم أبي أحمد عبد الله بن المنتصر بالله أبي جعفر منصور، وكانت عدة خلفاء بني العباس سبعة وثلاثين خليفة، وجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فقد خرج عن بني العباس بلاد المغرب. وإنما ذكرت هذه

المقدمة بطولها لتعرف ترتيب الدول فإن تغير الأحوال إنما هو بتغيير الملوك، وتتجدد العوائد بحسب أحوال الملوك وسيتضح لك ذلك بإذن الله تعالى.

إذا تقرر ذلك فاعلم أن العلوم الإسلامية لم تكن مدونة ولكن اقتضتها الشريعة اقتضاءً واستلزمتها لزوماً وأفاضتها إفاضة كما تقرر في المقدمة الأولى، وتلقت الصحابة أصولها من حضرته ﷺ ومشاهدتهم الوحي وتفقههم بأسباب النزول، وما أفاضته عليهم أنوار النبوة، ثم ثابروا على الحق وتساءلوا وتناظروا واجتهدوا وتراجعوا عند اختلافهم إلى من عنده مزيد علم بالمختلف فيه، وتواصوا وتعاونوا على إمضاء الشريعة وتشييعها وإلزام الناس بها وإكرام حملتها وملوك الناس علماؤهم والعلماء الكبار قليلون كما مر في المقدمة الثانية على ما هو العادة في الأمور المبتدأة كيف تكون في مبدئها وأولها قليلة، وما ظنك بالشيء المحتاج إليه مع قلته، ويلزم من ذلك كله وفور الداعية في تحصيل العلم ومزيد الاعتناء به والرغبة فيه، ولذلك كانت الفضائل والكمالات والعلوم تأخذ في الازدياد والنمو لنفاق أصحابها ولبقاء أنوار النبوة غضة طرية بين الناس، وكلما ازدادت الشريعة تمهيداً ونشراً ازدادت الصحابة وحاشاهم من تعلق هممهم بالدنيا سيادة ويسراً، فلقد كثر المال في خلافة عثمان بن عفان كثرة بالغة لم يكثر قبلها في خلافة من تقدمه، حتى جاء نصيب الفارس في غزوة إفريقية ثلاثة آلاف دينار أو عشرين ألف دينار فأطلقها كلها عثمان رضي الله عنه في يوم واحد لآل الحكم ويقال لآل مروان. ثم صارت الخلافة من الخلفاء الأربعة والحسن رضي الله عنهم إلى الأمويين فالعباسيين على ما تقدم في المقدمة الثانية، وهم ما بين صحابي وتابعي ومدل بنسبته إلى النبي ﷺ، والشريعة التي العلوم خدمتها شريعة قريبهم وصاحبهم وسيادتهم وفخرهم واستيلاؤهم على الممالك به ﷺ، وبشريعته المستلزمة للعلوم على ما مر في المقدمة الأولى فكيف لا تأخذ العلوم في الانتشار والملوك والأمراء والأعيان والقضاة والوزراء هم أهل العلم والفضل والعقل أو الممدحين الكمل، وشهرتهم وذكر أسمائهم في غالب خطب كتب الأقدمين تغني عن عدهم بالأسماء فقلّ أن يخلو كتاب من كتب العلماء الأقدمين خصوصاً في العلوم العقلية والأدبية إلّا ويذكر فيه أن الباعث على تدوينه وزير أو قاض أو أمير أو من في معناهم، ويلزم من ذلك قوة داعية التعلم وتوفر الإرادة له لما أن المجانسة واتحاد المقاصد والتعاون على مقصد واحد واستمداد العلماء بعضهم من بعض وزيادة العلم

ورسوخه بالبحث فيه والمذاكرة له كل ذلك مقتض للألفة والمحبة والاختلاط والعناية، وألفة الملوك والأعيان ومحبتهم والاختلاط بهم يقتضي تأليفهم ومن يحبونه إلى مقاصده ومآربه، ولذلك بنيت المدارس بألوف الدنانير لجنس العلماء أو لواحد منهم بالقصد الأول ولجنسهم بالقصد الثاني واتسع الحال بالعلماء أنفسهم حتى بنوا هم لبني نوعهم مدارس كثيرة، وكتب التاريخ طافحة بهذا. ولذلك أيضاً بذلت الألوف في الإرشاد إلى تصحيح كلمة أو مساعدة على مقصد علمي كحكاية النضر بن شميل مع المأمون، وأنه أمر له بخمسين ألف درهم يقبضها من الفضل بن سهل على أن يرشده إلى أن السداد الذي بمعنى البلغة وسد الثلمة بكسر السين لا بفتحها، وأن الفضل زاده من عند نفسه لذلك ثلاثين ألف درهم فتم له ثمانون ألف درهم. وكحكاية أبي عثمان المازني وإحضار الواثق إياه من البصرة ليسأله عن نصب رجل أو رفعه في قول العرجي:

أظلوم إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحية ظلم

وأمره على توجيهه إياه بألف دينار. وكحكاية دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السجزي [1] الفقيه المعدل المحدث الرئيس، صاحب الأموال الجزيلة التي أنفق أكثرها في العلم وأهله، المتوفى عن ثلاثمائة ألف دينار سنة ٣٥١ حيث بعث بمسنده إلى ابن عقدة لينظر فيه، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً، وكحكاية عبد الله بن طاهر حيث رتب للقاسم بن سلام أبي عبيد في كل شهر عشرة آلاف درهم لما وضع كتابه في غريب الحديث وقال له: إن عقلاً يعين صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق أن لا يحوج لطلب المعاش. وكحكاية علّي بن محمد بن الفرات من أنه كان ينفق على خمسة آلاف من العلماء والعباد ويجري عليهم نفقات كل شهر، وكغير ذلك من أخبار المدح والكلمات العلمية مما يغني تواتره المعنوي عن الإطالة به. ولذلك أيضاً كان التقريب والتبعيد والضعة والشرف على حسب الاستعداد والاستحقاق، وذلك كله يستلزم كون العلوم والكمالات صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف لما أن الناس كانوا يرون احتياجهم إلى العلماء فوق احتياجهم إلى الحاكة والباعة والصناع وباقي الحرف أضعافاً مضاعفة. وكان العلماء يسترزقون بعلومهم

(١) نسبة الى سجستان على غير قياس.

ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل إلى مقاصدهم فوق استرزاق الحاكة والخاطة أضعافاً مضاعفة، فلذلك اتسع نطاق العلم ودونت الدواوين وصنفت الكتب وهذبت ورتبت وبسطت واختصرت، واستبحر العلم استبحاراً وذخرت أمواجه وأخذ إلى أبْعد مسافة من أقطار الأرض شرقاً وغرباً، حتى إن علوم الشريعة كلها من التفسير والنحو والأصول والمعاني والحديث أكثر أصحابها العجم على بعد قطرهم، مع أن صاحب الشريعة عربي وكتابه عربي والمتلقون عنه وهم الصحابة عرب ـ ولذلك سبب أذكره استطراداً وهو أن الشريعة لما استلزمت العلم على ما مر، وكان العلماء هم الملوك والأعيان، وكان نفاق العلماء والاحتياج إليهم فوق نفاق الخياط والحداد والحائك والاحتياج إليه واسترزاق العلماء بعلمهم فوق استرزاق هؤلاء بحرفتهم، صار العلم حرفة من الحرف على ما تقدم، وقاعدة الحرف أن موجوديتها وكثرتها ومهارة أهلها يدور مع التمدن والحضارة، فكلما ازداد القطر تمدناً وحضارة ازدادت الحرف إحكاماً ومهارة، فلذلك لا تجد في القرى من المصنوعات ما يوجد في المدن، ولا في صغير المدن ما يوجد في كبيرها، لما أن رواج الحرف ونفاقها هو سر موجوديتها وإحكامها لأن الناس لا يضعون سلعهم حيث لا تقبل أو لا تنفق، وكبر المدينة وكثرة أهلها يستلزم النفاق لاحتياج الناس واختلاف أغراضهم وهممهم احتياجاً على البدل والتناوب إلى المصنوعات، واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة عدم الشعور والخلو واقتضائه للنفاق لأن توزيع المجموع على المجموع مع الكثرة على البدل والنوبة مستلزم لذلك لا محالة. ومملكة فارس والعجم كانت أكثر تمدناً وحضارة، فلذلك انتشرت العلوم فيها وأحكمت إحكاماً بليغاً إلى حد لا يوجد في غيرها لكثرة ناسها وعظم مملكتها. هذا كله في تبيين أن العلوم كانت صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف.

وأما الأمر الثاني وهو أن العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف، فذلك أن الحرف والدول لها شباب وهرم، ولها عمر طبيعي كأعمار الحيوانات والأمور المعنوية تتراجع وتتناقص عند التناهي كالأمور الجسية، وكنا قد قدمنا أن العلوم اقتضتها الشريعة اقتضاء، وأن الصدر الأول تشايعوا على إظهار الشريعة ولوازمها وتوابعها، فراج العلم والعلماء لذلك، ولا شك أن الدول بعد الخلفاء الأربعة وإن كانت فوق عصرنا هذا في الانتظام والسداد أضعافاً مضاعفة لكنها

دون عصره ﷺ، ويدل لذلك قوله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» وقوله ﷺ في رواية علي ابن الجعد عن حماد عن سعيد بن جمهان[1] عن أنس عن النبي ﷺ: «الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً». وخرج البيهقي في دلائل النبوّة عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وكانتا خلافة ورحمة وكانتا ملكاً عضوضاً وكانتا عتوّاً وجبرية وفساداً في الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير وينصرون على ذلك ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل». وخرجه أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة بنحوه مختصراً. ولسر هذه الأحاديث تجدد في الدول بعده ﷺ ما لم يكن في عصره ﷺ. واستعجم الملك وتجددت فيه أحوال فارس والعجم من الملابس الفاخرة والمساكن الأنيقة والحجاب ومضاعفة الحجاب، ومن الوزراء والجاويشية والجوندارية، وأصناف أمراء ووظائف وأسماء لم تكن في عصره ﷺ. وحدث تخطي الحدود والتعازير وتشنيع القتل وإيقاعه بغير موجب شرعي ، وزالت أحوال البداوة من خوف المذمة وشدة الحياء والكرم والتبذل في المأكل والملبس والمركب، ومن اتخاذ التواضع خلقاً، وحدثت الحوادث وكثرت الخوارج والمتغلبون على العباسيين الذين يدلون بنسبهم إليه ﷺ ونزلت سيادتهم بشريعته المستلزمة للعلوم كما تقدم، فخرجت حصة من مملكة الشرق من أيدي العباسيين في دولة بني بويه على يد يحكم وغيره ثم زالت أيديهم عن العراق كله، وخرج الحكم عنهم فيه أصلاً سنة وشهوراً في أيام إرسلان البساسيري في حدود الخمسين والأربعمائة، ثم عاد إلى أن أخرجه عنهم مطلقاً واستأصلهم هلاكو بن طولي خان بن جنكيز خان، وكان الصدر الأول يدبرون أفعالهم على محض الشريعة، ثم جاء من بعدهم فأدخلوا فيها بالاستدلال والتمحل جملة من السياسة، ثم فعلوا أموراً سياسية وهونوها على الناس بالاعتذار، ثم اتسع نطاق السياسة وأدار الملوك أحوالهم على عقولهم، وأحدث جنكيز خان الياساق الذي وضعه وجعل الناس يتحاكمون إليه ويطلع إلى جبل ويزعم أنه يوحى إليه به وأكثره مخالف لشرائع الله وكتبه، وإنما [illegible]ـه اقترحه من عند نفسه بعد الستمائة، وأوحاه

(١) جمهان كعثمان محدث. قاموس.

إلى شيطانه وكان يكتب ابساقه في مجلدين بخط غليظ ويحمل على بعير ويبالغ في تعظيمه، وكثرت الحوادث السياسية والأمور العقلية المخالفة للشريعة، واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضي طي بساط العلم ويفضي إلى عدم الاحتياج إليه، فإن النفوس حكوّية من شأنها المحاكاة في الشر ومهما صدر شيء وزال بقي منه أثر في النفوس، وزواله الظاهر لا يستلزم زواله من النفوس، وزوال الاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان، وهذا كله يستلزم طي بساط العلم وعدم الحاجة إليه لما أن العلوم من لوازم الشريعة وتوابعها كما قررناه وأعدناه غير مرة، وإذا ضعف العمل بالملزوم وتسوهل فيه فأولى أن يضعف العمل اللازم ويتساهل فيه، ولذلك لم يبق من العلم سوى رسومه ومعاهده كالمدارس القديمة، وسوى ما يوجبه ناموس الإسلام من الاعتراف بحقه ظاهراً، فقد اتضح عندك خروج العلوم عن كونها مظنة الاستحقاق ومطية الاسترزاق، وكيف لا وقد صارت الوظائف الدينية تباع كما يباع الفرس والحمار وهو الذي يسمونه نزولاً وإعراضاً ويوصى بها كما يوصى بالقوس والدار وهو الذي يسمونه نزولاً أيضاً، وتورث كما تورث الأموال يأخذها الصغار والأطفال. وأنت إذا رجعت أن كثرة الحوادث الخارجة عن الشريعة تحدث في النفوس محاكاة وأثراً واستدلالاً، وأن الناس على دين مليكهم وهم بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأن الملوك أسواق يحمل إليها ما ينفق فيها، وأن الصنائع تدور مع النفاق وجوداً وعدماً، وأن وثوق المحترف من الباعة والحاكة والخاطة بإفضاء حرفهم إلى ثمرتها أكثر من وثوق العلماء بإفضاء علمهم إلى ثمرته الدنيوية، وأن إهمال الصنعة والاستغناء عنها بغيرها يوجب اضمحلالها وزوالها وما نسب لذلك مما تجده وتشاهده من إهمال المنطق والحكمة بالشام واستعماله بالروم والعجم، تحققت أن العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف، اللهم إلّا أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها في أيام الملك المؤيد وينشرها فهو الذي عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموفقة وساطع أمره وقهره، وإحياء معالم العلم شرعه وشعره أبقى الله دولته بقاء الفرقدين وملكه ما بين المشرقين.

وأما الأمر الثالث وهو كون العلوم كمالات وطاعات فهو أن الإنسان إنما ينفصل عن الحيوان بالنطق، وليس المراد به الصوت المنضغط في المجرى على مقاطع الحروف وإلا لكان الأخرس غير إنسان، ولا الكلمات المنتظمة وإلّا لكانت الببغاء

والغراب إنساناً، وإنما المراد به النفس الناطقة وهي التي لها الفكر والروية ومحبة العلم والمعرفة، وهي التي تملك الطبائع القياسية وغير القياسية وتكون فلسفية وحكمية، وتبحث عن العلوم النظرية ولها الاستدلال بظواهر الأمور على بواطنها ومعرفة ترتيب الموجودات في الوجود، وهذه القوة كمالها وحياتها بالعلم والبيان فتميز الإنسان بما هو إنسان بالعلم والبيان وإلاّ فغير الإنسان من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول عمراً، وإنما يتميز عن الدواب والحيوان بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم كما قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾(١) فهؤلاء هم الجهال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾(٣) سواءٌ كان المعنى مثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب، أو مثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان. وأيضاً فالجهل من أعظم الأدواء والأمراض، وقد سماه الله مرضاً في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾(٤) وقوله: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون﴾(٥) وفي قوله: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾(٦) فإن المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة، وكذلك أمراض القلب جميعها من الشهوة وغيرها كالرياء والعجب والحسد والفخر كلها ناشئة عن الجهل، فإنها مركبة من الشهوة والشبهة فإن الكبر مثلاً مركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم إياه، ودواء هذه الأمراض كلها العلم، ولذلك أكثر الغزالي رحمه الله في ربع المهلكات من ذكر دواء العلم في كل

---

(١) سورة: الأنفال، الآية: ٢٢.
(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢٣.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ١٧١.
(٤) سورة: البقرة، الآية: ١٠.
(٥) سورة: المدثر، الآية: ٣١.
(٦) سورة: الحج، الآية: ٥٣.

مرض مرض من أمراض القلوب، ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور، ولذلك أيضاً ترى داء الجهل متلفاً للأموال غالباً، فرب شخص يتحيل عليه بحيلة شرعية يجعلها طريقاً إلى أخذ ماله ولولا جهله بالشريعة لما تمت عليه ـ وأيضاً ما روي عن ابن عمر يرفعه: «أفضل العبادة الفقه» وقال عمر رضي الله عنه: «موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلاله وحرامه» وما رواه الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه عن ابن عمر يرفعه: «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة» وما رواه أيضاً من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه: «يسير الفقه خير من كثير العبادة» قال ابن قيم الجوزيّة في مفتاح دار السعادة وفي رفعها نظر وما رواه أيضاً من حديث أنس يرفعه: «فقيه عند الله أفضل من ألف عابد» وهو في الترمذي من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً، قال ابن القيم: وفي ثبوتهما مرفوعين نظر، والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم، وما رواه المخلص عن ابن صاعد، حدثنا القاسم ابن الفضل بن مربع، حدثنا حجاج بن نصير، حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي هريرة وأبي ذر قالا: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً، وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً». وما رواه الخطيب أيضاً عن أبي الدرداء أنه قال: «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة». وما رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً إنما ورّثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر». أما وضع الملائكة أجنحتها فتواضعاً وتوقيراً وإكراماً لما تحمله من ميراث النبوة لأنه طالب لما فيه حياة العالم ونجاته، ففيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم مناسبة لأن الملائكة يحرصون على منافع البشر يعينونهم على أعدائهم الشياطين ويستغفرون لمسيئهم. قال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا ين يحيى الساجي قال: كنا نمشي في بعض الأزقة إلى باب بعض المحدثين بالبصرة، فأسرعنا المشي وكان معنا رجل تاجر متهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزىء، فما زال من موضعه

حتى حفيت رجلاه وسقط. وأما استغفار من في السموات ومن في الأرض له فإنه لما كان ساعياً في نجاة العباد جوزي من جنس عمله، وجعل ما في السموات والأرض ساعياً في نجاته. وقيل: سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وذبحها، فاستحق أن يستغفر له البهائم. وقوله: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» مطابق لحال القمر والكواكب، فإن القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره في أقطار العالم، وهذه حال العالم. وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه وما قرب منه وهذا حال العابد ـ ووجه اختيار القمر على الشمس وإن كانت الشمس أكثر نوراً وإضاءة أن القمر لما كان نوره مستفاداً من الشمس كان تشبيه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس، وأيضاً فنور القمر يتفاوت بتفاوت الليالي نقصاناً وتماماً، والشمس نورها في كل الأيام على السواء، والعلماء يتفاوتون في العلم تفاوتاً كثيراً فتشبيههم بالقمر أنسب لحالهم ـ وأما تشبيه العلماء بالنجوم في قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم» فمن وجه آخر وله حكمة أخرى، فإن النجوم يُقتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتكون رجوماً للشياطين والعلماء كذلك يُقتدى بهم في ظلمات الجهل والكفر وترجم بهم الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم زخرف القول غروراً.

الفصل السابع

(في السبب في غلبة الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان ذلك)

اعلم أن المفلوكية والإهمال والإملاق غالب على جنس البشر، والسبب في أن غالب البشر يرمقون العيش ترميقاً، ويدافعون إخفاق المساعي مدافعة، ويتسكعون [1] في طرق الإملاق أو فوقه بقليل تسكعاً، أن السيادة والمجد والثروة والغنى وأشباهها إما مكتسبة وإما موروثة، فأما المكتسبة فما سوى الإمارة من المعاش الطبيعي إما تجارة أو فلاحة أو صناعة، فالتجارة مفتقرة إلى مادة متسعة، ورأس مال كبير يدار في وجوه الأرباح والتثمير ويوزّع على أنواع المتاجر لينجبر كساد بعضها بنفاق الآخر، وليستعان بالنافق على ادّخار الكاسد ارتقاباً لحوالة الأسواق واستدراراً للنفاق، ولكيلا يباع الكاسد في حال كساده وذهاب ربحه وفساده وأيدي الناس خالية عن الأموال المقنعة القابلة لمثل ذلك غالباً ـ وأيضاً فهي محتاجة إلى بصيرة تامة ودارية وافية وتجربة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلابتهم وترويج السماسرة كواسدهم، ومفتقرة أيضاً إلى فراسة صادقة وحدس صحيح ليضع كل سلعة في حاق موضعها زبوناً وسوماً وترخيصاً وإغلاء وحلولاً وتأجيلاً وادخاراً وتعجيلاً، ونفوس الناس غالباً ظلمانية لخلوها عن العلوم العقلية والأعمال الرياضية فهي بعيدة عن البصيرة ـ وأيضاً فالأيدي الغاصبة الخاطفة مستولية على التجار لمقهوريتهم مع الدولة، وحامية الملك وخاصته المخادعين بالاستدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون الغير المملوكة، والالتجاء إلى الإعسارات والحيل الشرعية، والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء، وربما تكرر ذلك على التاجر الماهر فعاقه وأقعده عن أمثاله حتى أتى على رأس

(١) في القاموس الترميق العمل بعمله ولا يحسنه يتبلغ به، وهو مرمق العيش ومرمقه كمعظم ومحمر ضيقه اهـ . وقوله: يتسكعون أي يذهبون متحيرين لا يدرون أين يأخذون اهـ .

ماله ـ وأما الفلاحة فعوارضها السماوية أكثر من أن تعد من البرد والهواء المفرطين، وانقطاع المطر وكثرته في غير وقته، ونزول كبار الحصى والبرد، وثقيل الثلج وشدة الحر، ومجيء الجراد المنتشر وكذلك العوارض الأرضية من سوء النبت وسباخة الأرض وخبث طينها، ووضع الأشياء متأخرة عن أوانها وعدم استكمالها بحراثها وشروطها، ونبات الأشياء المضرة خلال الأشياء المطلوبة، ومن الجرذ والفأر واليربوع، ومن رخص البقول والخضراوات وما في معناها مما لا يقبل الادخار مع غلاء بذرها، ومن عدم نصيحة المعاونين فيها وخباثتهم واختلاسهم وتفويت الأعمال الكمالية المصلحية، وتسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن في وجوه الجبايات وأنواع الظلامات وإلجائهم إلى بيع زراعاتهم في حال كسادها وعدم رواجها مع ما يختص به أهل البدو من رداءة العيش وخشونته، والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف، وموجودية المطالب والتحلي بالعلوم، ثم مع ذلك كله ما هم عليه من دخول المهانة في قلوبهم وظهورها في أحوالهم وعلى شمائلهم وناهيك قوله ﷺ: «ما دخلت السكة دار قوم إلّا دخلها الذل» ـ وأما الصناعات فلقلة الماهر الحاذق فيها وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدّعة والراحة والرفاهية، ويطرقها الكساد كثيراً ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبه بطائل، وأصحاب الصنائع باذلون رقهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغني والمسلم والذمي، فهم بمراحل عن الشهامة وعلوّ الهمة والأنفة ـ ثم جهات المعاش الثلاث مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعا من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت لكثرة مقتضيات التحاسد، ولحيلولة كل واحد الآخر عن مراده الناشئة من الكبر والعجب والعداوة وخوف الازدحام على مطلوب واحد، ولفوات بعض المقاصد بكثرة الشركاء وحب المباهاة والانفراد بالمجد وخبث النفس وفساد جوهرها ونقص إنسانيتها ـ وأيضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كلما تجدد للإنسان دخل جدد له صرفاً إما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطاً في الشهوات وانهماكاً في اللذات أو خوفاً من سوء القالة والأحدوثة بتنقيص ما يقتضيه حاله، أو بإكراه مبغض لتلك النعمة عليه، أو لأن الحالات المتجددة في دخله يلزمها تجدد أمور في صرفه فلا يزل الشخص مفلوكاً مهملاً غير قادر على المكارم ـ وأيضاً فوجوه المجد والسيادة الكسبية لا تصير دفعة وإنما تكون بالتدريج والترقي ومكابدة

تنميتها ومعالجة زوال موانعها مع كثرة الصادّين عنها والعوارض العائقة لها أمر عسير بطيء السير، فيقضي الإنسان شطر عمره أو معظمه في فلاكة وإدبار ـ هذا حكم وجوه المعاش الطبيعي. وأما غير الطبيعي كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم والدلالة وقلم الشهادة لغير المعروف وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية الصدفية فهي أرسخ قدماً في الفلاكة والإدبار لأنها بمنزلة اللقطة والعثور على دفائن الأرض لعدم انتظامها ووفاء محصولها لخمولها، فأصحابه لا سيما غير المشهور منهم أئمة الفلاكة وهيولاها وينابيعها ومأواها أعاذنا الله من ذلك ومن الاختلاط بأهله آمين ـ وأما الامارة فلا ينكر أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والادبار وبيانه أن الأمرة لا تتم إلّا بالعصبية والتغلب والشوكة، وفي قمع المعاند والجاحد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والقيام بحقوق لا تحصى كثرة معاناة شدائد ومكابدة مكائد ومشاق وتعريض النفس للهلاك، وكبراء الجند مستعبدون مع مليكهم مشغولون به عن أنفسهم، مقدمون لمراده على مرادهم ولو سلم أن السلطنة خالية من الفلاكة فهي من القسم النادر. والدعوى أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان لا أنها لازمة لكل نوع الإنسان ـ هذا كله من المكتسب. أما الموروث فيطرقه أنواع من الفلاكة منها امتداد أيدي الولاة والحكام إليه ـ ومنها مذلة اليتيم وخضوعه وفقده نصيحة أبيه ـ ومنها سهولة صرف ماله عليه لعدم تحمله مشاق جمعه وتجشمه نصب الحبائل في تحصيله فيسرع فيه بالسرف والتبذير والسفه لعدم حنكته وبصره بعواقب الأمور ويعود يتكفف الناس ـ ومنها عجزه لعدم مهارته ودربته عن الوفاء بمقاصد ماله والقيام بشروط تنميته وتثميره، فيذوب قليلاً قليلاً إلى أن يضمحل ويتلاشى، ولا يحصل منه إلّا على الملامة والتعيير والندم ـ ومنها إنكار المنكرين كونه في رتبة مورثه ومستحقاً لما كان يعاون به مورثه ويساعد عليه فلا يؤمنون على دعائه، ولا يساعفونه على قصده، ولا يسيرون معه سيرة مورثه، فيقع من ذلك في العناء العظيم والداء العقيم. وبهذا التقرير يعلم أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان وارثاً كان أو كاسباً والله أعلم.

الفصل الثامن

(في أن الفلاكة المالية تستلزم الفلاكة الحالية)

هذا الذي قدمناه في الفصل قبله لما كان لا ينتهض دليلاً إلاّ على غلبة الفلاكة المالية على نوع الإنسان، احتجنا أن نذكر في هذا الفصل أن ذلك مستلزم الفلاكة الحالية، وأعني بالفلاكة الحالية تعذر المقاصد وانعدامها بحيث تصير الفلاكة حالاً ووصفاً ذاتياً للشخص في أفعاله وأقواله دفعاً وتحصيلاً حكماً وتعليلاً - والدليل على ذلك أن تقول: هذا مفلوك مالاً، وكل مفلوك مالاً فهو مفلوك حالاً ينتج هذا مفلوك حالاً، وكلية الكبرى بديهي أو حسي، والصغرى مسلمة بالفرض أو محسوسة. أو تقول: دارت الفلاكة الحالية مع الفلاكة المالية وجوداً وعدماً، والدوران آية كون المدار علة في الدائر، والمعلول لا يفارق علته، فهو إما مقارن أو متعقب على اختلاف المذهبين، وهذا وإن كان بديعاً وهو الاستدلال بالدوران على العلية وبالعلية على مقارنة المعلول إياها فليس بعيداً من القواعد، أو يستدل بالدوران على الملازمة، وبالجملة فالدعوى تكاد تكون بديهية والحس والاستقراء يصدق ذلك - ويوضح ذلك أن المال عبارة عن ملك الأعيان، والمنافع والجاه عبارة عن ملك القلوب واستسخار أصحابها في الأغراض والأعمال لما فيها لذي الجاه من اعتقاد الكمال والالتفات إليه، والمفلوك لا جاه له ومال وكل من لا جاه له ولا مال له فهو مسلوب القدرة لما أن الجاه والمال من أعظم أسباب القدرة أو هما أسباب القدرة، ومن لا قدرة له فهو عاجز عن الوصول إلى مطلوباته لما أن مقدوراً بلا قدرة محال ولذلك لا يحصل مقصود المفلوك نادراً إلاّ بقدرة غيره من ذوي المال والجاه. ولذلك أيضاً لو فرض شخص لا مال له ولا حرفة لم يكن إلاّ شحاذاً مكدياً لأن ما في أيدي الناس إنما هو ثمرة أموالهم ومنافعهم - وأيضاً من لا قدرة له لا يتعلق الرجاء والخوف به، ومشايعة الناس الشخص ومساعدتهم إياه على مراده دفعاً وتحصيلاً وتسليمهم له حكماً وتعليلاً لا بد لها من داعية وغرض ليترجح أحد الجائزين من الفعل والترك على الآخر بمرجح،

وأعظم الأغراض والدواعي تعلق الرجاء والخوف بالشخص لما أن الإنسان يقدر هجوم الحاجات وطروق الآفات وسوء الظن بالعواقب كامن في النفوس لا سيما في البلد الذي لا يكمل عدله ولا يتراحم أهله، ولذلك لا تمل الاستزادة من الدنيا. قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً». وقال ﷺ: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال» وذلك لأن هذه المخاوف لا موقف لها ولا لها قدر مخصوص، فمن تعلق رجاؤه أو خوفه بشخص كانت مساعدته له لأمر يتعلق بنفسه بالآخرة، وكان دافعاً لألم خوفه وساعياً في تحقيق رجائه، والشخص أنصح ما يكون لنفسه لأن نصحه لها طبيعي، فلذلك تساعف الناس الأغنياء بمراداتهم وتتزلف الخلق إليهم بمطالبهم ويسعفونهم بمنافعهم تسليفاً وادخاراً لخوف مترقب أو رجاء متوهم وإن لم ينالوا من مالهم ذرة ولا من جاههم مثقال خردلة، وإذن كانت المفاليك عن الرجاء والخوف بمعزل ـ وأيضاً فالدنيا محل الازدحام والتوارد على محل واحد بخلاف الآخرة، ولذلك لا حسد في الآخرة لاتساعها ووفائها بالكل بلا ازدحام فما من مقصد يرومه المفلوك إلّا وله فيه مزاحم ومدافع يمانعه عنه، وتقديمه على غيره ترجيح للمرجوح على الراجح وهو خلاف صريح العقل، ويلزم من ذلك تعذر المقاصد على المفاليك وإخفاق مساعيهم فيها. وأيضاً فالأغنياء وذوو الجاه يتقارضون المقاصد تقارضاً، ويقترضونها اقتراضاً، والتقارض يستدعي القدرة على الوفاء بالنوبة بحكم المقارضة لأنه أمر على التعاقب والنوبة، والقرض لا يوضع عند المعسرين، والمفاليك ليسوا من أهل المقارضة ولا الاقتراض على أن استلزام الفلاكة المالية للفلاكة الحالية كفلق الصبح عند المنصفين، ولعل جحده مكابرة والقاعدة أن المكابرة لا يطلب لها دليل والله أعلم.

الفصل التاسع

(في أن التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة في الاعتذار إليهم وإظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضاها إلى مقاصدهم وبيان الدليل على ذلك)

اعلم أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم سدى بغير غرض ولا علة، لأن المتعالي عن وجوب تعليل أفعاله بالأغراض والمصالح إنما هو الله تعالى، وإن خالفت المعتزلة في ذلك فلا بد للإحسان أعم من أن يكون نفعاً أو مالاً قولاً أو فعلاً من غرض وحظ هو عند الباذل أوفى بما بذله وتحصيله عنده أحب إليه من ذلك المبذول، فكما أن الشخص لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه، كذلك لا يضع ماله في يد إنسان ولا غرض له فيه، وذلك الغرض إما آجل وهو جزيل الثواب في الآخرة قال ﷺ: «أيما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له». وإما عاجل في الدنيا وهو إما ترقب المكافأة بإحسان مثله نوعاً أو جنساً، أو المنة والترفع أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم، أو جذب القلوب إلى طاعته ومحبته واستسخارهم، أو إزالة مذمة البخل وخبثه والنفرة الحاصلة للبخلاء واستقباحهم عنه، أو إزاحة حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة عن قلبه، أو إزاحة رقة الجنسية ورحمة النوعية عن قلبه ودفع الألم الحاصل له من الرقة بسبب سوء حال من يحسن إليه، أو دفع ألم خوف حاضر أو مترقب. والاستقراء يدل على الحصر. ثم إن بعض هذه الأغراض أقوى من بعض، وبعضها أدوم وأشد بياناً من بعض، فالإحسان بالوارد الأخروي قليل الثبوت والاستمرار إلّا من وفقه الله تعالى، وأيضاً فأعمال الخير تتقارض وينوب بعضها عن بعض، والأعمال البدنية أسهل على النفوس في تحصيل مطلوب الآخرة من الأعمال المالية، وبتقدير ثبوتها فإنما يثبت جنسها وأما انحصارها في مفلوك بعينه فأقل ثبوتاً، بل لو قيل بعدم ثبوتها في مفلوك بعينه البتة لم يكن بعيداً

فلايفيد المفلوك التعويل عليها. وأما حب المنة والترفع فليس شاملاً لعامة الخلق ولا لمعظمهم، لأن النفوس المستشرفة للمكارم والمعالي تأباه وتنفر عنه وإنما ذلك غالباً ممن يصدر عنه الإحسان تكرماً وتطبعاً وتكلفاً لا طبعاً، فهو من فساد جوهر الإنسانية وقولنا لا يكون غالباً لأن الكلام فيمن يصدر منه الإحسان لا في مطلق الإنسان فلا يجمل بالمفلوك جعله رأس ماله لأنه حينئذ يكون قد رضي بأقل الناس عدداً وأفسدهم جوهراً. وأما حب الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم فذلك يقتضي وضع المكارم في الناس على البدل والنوبة وتعميم العطاء للنظير والأعلى والأدنى، ويكتفي من الواحد بالشخص بالمرة والمرتين والثلاثة لأن الغرض إقامة الحجة وبسط المعذرة، فلا يحسن أيضاً بمفلوك التعلق بمحسن هذا غرضه لأنه ماذا عسى أن يحصل من المرة والمرتين ولأن العطاء العام قد لا يصادفه لأن الاستدلال بالأعم على الأخص ممتنع. وأما جذب القلوب إلى الطاعة والمحبة والاستسخار فهو أيضاً مما لا يوصل مفلوكاً إلى غاية ولا إلى مطلب يؤبه له، وقصاراه أن يوصله إلى مبادىء الخير لأن الغرض إقامة الحجة عليه واستعباده، وذلك يحصل بأدنى مرتبة يمكن استعباد مثله بها. وأما إزالة مذمة البخل ووضره ونفرته فلا يختص بإفاضة الإحسان على المفاليك بل قد يحصل بتنعيم النفس وإظهار بزتها وزينتها وبالبسط على العيال وضيافة النظير أو المساوي في المنزلة. وأما إزاحة رقة الجنسية فتستدعي حالاً غير مرضية تستنزل بها الرحمة زيادة على الفلاكة، إذ الفلاكة الدائمة تعتاد وتؤلف فيضعف كونها طريقاً للرحمة، وتلك الحال الزائدة تربو على الإحسان مرارها أضعافاً مضاعفة، ثم إن رقة الجنسية من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم، ولذلك كانت إزالة حب الدنيا عن القلب من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم ـ وإذن تقرر أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم بغير غرض بل لا بد لهم من غرض إما عاجل أو آجل، والمفلوك تمنعه الفلاكة عن المكافأة على الإحسان بإحسان مثله، وتمنعه أيضاً من الإخافة، والأمور التي مرجعها الآخرة لا تبقى ويكتفى ببعض أعمال الخير البدنية عنها وغيرها لا يخص مفلوكاً بعينه ولا يوصله إلى غاية يؤبه لها، ثم إن ما سوى رقة الجنسية أمور راجعة إلى الباذل وحده فلا بد في المفلوك من تحريك بواعث الناس بأمر يرجع نفعه إليهم، ويكون وصفاً للمفلوك نفسه ويدخل تحت قدرته دائماً لتبقى داعية الإنسان متحركة دائماً لا تسكن لقدرة المفلوك على تحريكها كل وقت ـ فبخضوعه وتملقه تظهر سيادتهم وعزمهم ويؤمن كبر المفلوك عليهم وتيهه وصلفه بإسعافهم

بمراده، وببسط أعذارهم يأمنون حقده فيعاودون الإحسان إليه وإن سلقوه إساءة وأذى لأن الإساءة طبيعية للبشر للقوة الغضبية، ولما أن في القلب ميلاً للأخـلاق السبعية، ولأن في النفوس محاكاة في الشر، ولأن دخول الشر تحت القدرة أكثر من دخول الخير كالصداقة والعداوة والبناء والهدم، والمفلوك مظنة للإساءة إليه لوجود المقتضي وانتفاء المانع فلا بد أن تعمل الطبيعة فيه عملها، ولا دواء لهذا الداء إلا بسط الأعذار. قال أبو الحوائر الواسطي:

دع الناس طرّاً واصرف الود عنهم * إذا كنت في أخلاقهم لا تسامح
فشيئان معدومان في الأرض درهم * حلال وخل في الحقيقة ناصح

وقال بشار بن برد:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى * ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وبالمبالغة في الاعتذار إليهم يتجاوز عن تقصيره وقصوره وعجزه اللوازم للفلاكة لأن للأغنياء شوافع من غناهم عن ذنوبهم قد تغنيهم عن الاعتذار بخلاف المفاليك، وبإظهار حبهم ومناصحتهم يجدون فيه روحاً ونفعاً راجعاً إليهم فيكـون إسعافهم لـه بمـراده من لوازم سيـادتهم وراجع بـالآخرة إليهم، ولكـون هذه الأمـور أكثر إفضـاءً بالمفاليك إلى مقاصدهم تجد الأسافل ترتفع على الأعالي كثيراً لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الأعالي وقلما تخلو دولة من ذلك، والسبب فيه أن الدولة إذا انقرضت وجاءت دولة أخرى فـأصحاب الـدولة الأولى يكـونون في نهـاية سعادتهـم، ففيهـم شمم وأنفة، ومطالبة لصـاحـب الدولـة الجديـدة بحقوق لـم يعـطوه عليها ثمناً، بل هي مما أوجبها خدمتهم في الـدولة الأولى، والـوقت سيف والحكم للوقت، ولصاحب الدولة الجديدة نصحاء ومتملقون وإن سفلت بهم المرتبة، وسياسة الملك تقتضي تقديم من في تقديمه نظامه وأبهته لا جرم ترتفع الأسافل على الأعالي كثيراً ـ اللهم لا خير إلّا خيرك، ولا طيـر إلّا طيرك، يا خـالق الأسباب والمسببـات والدواعي والبواعث والعزمات، لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، وأشهدنا عظيم رحمتك حتى لا نرجو أحداً سواك، وتجل علينا ببالغ قـدرتك حتى لا نخـاف أحداً غيرك، اللهم إنك تعلم أن الخضوع لغيرك والتملق لسواك فوق صبري وقاطع لظهـري لا يبلغه وسعي ويضيق عنه ذرعي فأغنني بك عمـن سواك يـا رب العالمين آمين آمين.

الفصل العاشر

(في تراجم العلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل)

وأقدم قبل الشروع في ذلك مقدمة ـ قال القاضي عياض في أخرويات الشفاء ما ملخصه: إن من استشهد بأحوال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه، أو على التشبه بهم عند هضمة نالته أو غضاضة لحقته ليس على طريق التأسي والتحقيق بل على مقصد الترفيع لنفسه أو الهزل أو إعلاء في وصف، كقول القائل: إن كذبت فقد كذب الأنبياء أو صبرت فقد صبر أولو العزم وكقول القائل:

فرّ من الخلد فاستجار بنا * فصبر الله قلب رضوان

فحقه إن دریء عنه القتل الأدب والسجن وقوة تعزيزه بحسب شنعة مقاله ومألوف عادته وقرينة كلامه أو خلاف ذلك لأن كلامه وإن لم يتضمن سباً ولا غضاً فما وقر النبوة ولا أعطاها حقها ـ وقال أيضاً في إيراده حكاية ما ملخصه: إن حكاية الأقوال الغير السديدة تدور بين الوجوب والاستحباب والمنع، فقد أجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهها عليهم، وحكى الله مقالات المفترين في كتابه على وجه الإنكار والوعيد عليها وكذلك الحكاية على وجه الشهادة والتعريف بقائله والإنكار والإعلام بقوله والتنفير عنه والتجريح له، فهذا دائر بين الوجوب والندب. وأما حكاية سبه ﷺ والإزراء بمنصبه على وجه الحكايات والإسمار ومضاحك المجان ونوادر السخفاء فكل ذلك ممنوع وبعضه أشد في المنع فما كان عن غير قصد أو غير عادة ولم يكن من البشاعة حيث هو ولم يظهر استحسانه زجر ونهي عن العود إليه، وإن قوّم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن اتهم أنه اختلقه أو كانت تلك عادة له أو أظهر استحسانه لذلك أو كان مولعاً بالتحفظ لمثله قتل ـ ثم قال: وقد أسقطوا من أحاديث المغازي

والسير ما هذا سبيله وتركوا روايته إلاّ أشياء يسيرة ذكروها غير مستبشعة ليروا نقمة الله من قائلها وأخذه المفتري عليه بذنبه انتهى ملخصاً. فخرج من كلامه أن ذكر الأحوال المدخولة حكاية كان أو استشهاداً والإنكار والتعريف والرد وتبيين ما لله في ذلك الفعل من الحكمة في الحكاية ـ وإنما قدمت هذه المقدمة لأنّا سنذكر تراجم العلماء الذين زوى الله عنهم الدنيا في مساق الفلاكة فقد يقول من شم طرفاً من الفقه: إن ذكر العلماء في مسياق الفلاكة غض من قدر العلم وتهاون بحرمته ـ والجواب عن هذا التوهم أما أولاً: فما قاله القاضي على ما قررناه في كلامه على أن ما قاله القاضي عياض رحمه الله من التفصيل إنما هو في الله تعالى وملائكته وأنبيائه ـ وأما ثانياً: فلا نسلم مجيء مثل هذا التفصيل في الحكاية عن العلماء، ولو سلم مجيئه في العلماء فلا نسلم مجيئه في التراجم لأن أوصاف الكمال وأوصاف غير الكمال كل واحد منهما يشعر وصفه ونسبته إلى الشخص بانتقال لآخر عنه ورفعه، فلو اقتصر في التراجم على أحدهما لكان تلبيساً وتدليساً وإغراءً وحملاً على الجهل، وهذا إن لم يعين أو يرجح ذكر الترجمة بطرفيها فلا أقل من أن يقتضي عدم المنع من ذكرها بطرفيها ـ وقد يقال: لا حاجة بنا إلى هذا البحث لأن لفظ الفلاكة والمفلوك مجتنب في هذا الفصل إلاّ نادراً وإنما نذكر فيه تراجم العلماء ناقلين لها من المصنفات المعتمدة من غير إطلاق لفلاكة أو مفلوك على أحد والعهدة في المنقول على المؤرخين والعذر في أتباعهم في نقله أنه لم تزل العلماء والمؤرخون يذكرون ذلك إملاء وتصنيفاً شائعاً ذائعاً من غير نكير، فكان إجماعاً من السلف على جوازه. وقد تقدم كلام القاضي في جواز الحكاية على جهة التعريف أو التنفير، وتقدم أيضاً ما قلناه على سبيل البحث من أن في ذكره أمناً من التدليس والتجهيل ـ وأما الاعتذار عن إيراد الفلاكة والمفلوك على الندور فهو أنّا نقول: الفلاكة وإن أشعرت بتنقيص إلاّ أنّا نذكرها في هذا الفصل معراة عن معنى التنقيص والكلمات كثيراً ما تكون حاملة لمعنيين فتعرى من أحدهما مجازاً وهذا في الكشاف في مواضع، فمنه ما ذكر في سورة الأعراف أن واو الحال هي واو العطف استعيرت لمجرد الوصل، وعلى الجملة فاستعمال الكل في الجزء مجاز شائع ـ أو نقول: المراد بالفلاكة المذكورة في هذا الفصل وقوع ما الأولى خلافه واللغة اصطلاحية على قول، والألفاظ التي يدور عليها معنى في تصنيف كالخبن والطي في العروض اصطلاحية اتفاقاً، فقد سقط بهذا التقرير اعتراض من يدلع لسانه كالكلب

مجادلاً بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ـ اللهم عياذاً بك ممن قصر في العلم والدين باعه وطال في الجهل وأذى عبادك ذراعه فقد اتخذ بطر الحق وغمص الناس سلماً إلى ما يحبه ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلّا ما يشتهيه ويأباه، ولياذاً بك ممن جعل الملامة بضاعته والعذل نصيحته يجعل عداوته وأذاه حذاراً واشفاقاً وتنفيره وتخذيله اسعافاً وإرفاقاً متى برّز على الجهال بأصغريه ظن أنه قد زاحم العلماء بركبتيه ـ إذا تقرر ذلك فاعلم أن الفلاكة على ضربين أحدهما فلاكة مالية ونعني بها كون الشخص غير محظوظ في أمور الدنيا المالية على ما قررناه في الفصل الأول، أو وقوع ما الأولى خلافه في الأمور المالية على ما قررناه في هذا الفصل ـ والثاني فلاكة معنوية ونعني بها الأوصاف المخالفة لمحاسن الطبيعة أو لمحاسن الشريعة من الأفعال المحرمة أو الأفعال المكروهة والأخلاق القبيحة المذمومة ـ وإذا عرفت انقسام الفلاكة إلى هذين القسمين مالية ومعنوية اتضح لك مناسبة التراجم الآتية في هذا الفصل لمقصود الفصل ـ وهذا حين الشروع. وإنّا ننقل فيها ألفاظ المترجمين بحروفها من غير تصرف فيها لتكون العهدة عليهم في ذلك والله المستعان.

١ ــ القاضي عبد الوهاب

ابن علي بن نصر المالكي كانَ بقية الناس، ولسان أصحاب القياس، ونبت به بغداد على عادة البلاد بذوي فضلها وعلى حكم الأيام في مخبا فعلها، فخرج وخلع أهلها وودع ماءها وظلها، فلما فصل عنها شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة وطائفة كثيرة فقال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين في كل غداة ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية. وفي ذلك يقول:

سلام على بغداد في كل موطن * وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها * وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها * ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوّه * وأخلاقه تنأى به وتخالف

ثم توجه إلى مصر فحمل لواءها وملأ أرضها وسماءها وتناهت إليه الغرائب

وانثالت عليه الرغائب، فمات في أول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها زعموا أنه قال وهو يتقلب ونفسه تتصعد لا إله إلّا الله لما عشنا متنا. توفي سنة ٤٢٢.

٢ ــ ابن مالك

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي الجياني الملقب جمال الدين صاحب التصانيف المبسوطة والمختصرة والنظم والنثر، شيخ النحاة في عصره والإمام في اللغة، كان كثير الاشغال والاشتغال حتى إنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد. قال شارح التنبيه الشيخ أبو جعفر رفيق الأعمى نزيل حلب في ترجمته أول الشرح: خرج من الدنيا ولم يتعلق بأعراضها ولا قرطس سهمه في أغراضها - قلت: لقد أحسن الشيخ أبو جعفر رحمه الله العبارة عن الفلاكة فإن قوله: خرج من الدنيا إلى آخره هو والفلاكة عبارتان عن معنى واحد. توفي رحمه الله سنة ٦٧٢.

٣ ــ النضر بن شميل

الشاعر التميمي المازني النحوي البصري، عالم بفنون من العلم، صاحب غريب الحديث والشعر، وهو من أصحاب الخليل، خرج النضر يريد خراسان لما ضاقت عليه البصرة بالمعيشة فشيعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلّا محدث أو لغوي أو عروضي أو أخباري، فقال: يا أهل البصرة يعز عليّ فراقكم، ولو وجدت كيلجة باقلى ما فارقتكم، فلم يكن فيهم أحد يتكلف ذلك. ودخل على المأمون في ثوب مرقوع فقال له: يا نضر ما هذا التقشف؟ فقال: شيخ ضعيف وحر شديد فأتبرد بهذه الخلقان، قال: لا ولكنك قشف، ثم تجاذبا الأحاديث إلى أن أدّى بهما الحديث إلى السداد بمعنى البلغة وسد الثلمة، فأورده المأمون بفتح السين فرده النضر عليه وبين له أن المفتوح إنما هو القصد لا البلغة، فأمر له عند انصرافه بخمسين ألف درهم يقبضها من الفضل بن سهل، فصرفها له ثمانين ألف درهم عند وقوفه على سبب الصرف. وتوفي بمرو سنة ٢٠٤.

٤ ــ الأخفش الصغير

هو علّي بن سليمان النحوي، كان إماماً في اللغـة والأدب، وهو غيـر الأخفش الكبير لأنه أبو الخطاب عبـد الحميد، والأخفش الأوسط لأنـه سعيد بن مسعـدة أبو سعيد، كان الأخفش الصغير يلازم المقام عند أبي علّي بن مقلة؛ وأبـو علي يراعيـه ويبره، فشكا إليه في بعض الأيام ما هو فيه من شدة الفاقة وزيادة الإضـاقة، وسأله أن يعلم الوزير أبا الحسن علي بن عيسى ويسأله له إقرار رزق من جملة من يرتـزق من أمثاله ففعل فانتهره الوزير انتهاراً شديداً وكان ذلك في مجلس حافل، فشق على ابن مقلة ذلك ثم وقف الأخفش على صورة الحال فاغتم لها، وانتهت به الحـال إلى أن أكل السلجـم النيء فقيل إنه قبض على فؤاده فمات منه فجأة سنة ٣١٥.

٥ ــ التلعفـري

محمد بن يوسف بن مسعود الأديب البارع شهاب الدين أبو عبد الله التلعفـري الشاعر المشهور، اشتهر ذكره وشاع شعره، وكان خليعاً معاشراً وامتحن بالقمار وكلما أعطاه الملك الأشرف شيئاً يقامر به فطرده إلى حلب فمدح بها صاحبها العزيز فأحسن إليه وقرر له رسوماً، فسلك معه مسلك الملك الأشرف فنادى في حلب أن من قامر مع الشهاب قطعنا يده، فامتنع الناس من اللعب معه فضاقت عليه الأرض وترك الخدمة وجاء إلى دمشق ولـم يزل يستجدي بها ويقامر حتى بقي في أتُّون[1] من الفقر، ثم نادم في الآخر صاحب حماه وبها مات سنة خمس وسبعين وستمائة.

٦ ــ الترمـذي

محمد بن أحمد بن نصر أبو جعفر الترمذي الشافعي، لم يكن للشافعية في وقته أرأس منه ولا أورع، وكان من التقلل على حال عظيم، أخبر أنه تقوت في سبعة عشر

---

(١) الأتون بفتح الهمزة وتشديد التاء المضمومة وقد تخفف أخدود الخبّاز والجصّـاص ونحوهما ا هـ.

يوماً بخمس حبات أو قال ثلاث حبات، قيل له: كيف عملت؟ قال: لم يكن عندي غيرها فاشتريت بها لفتاً فكنت آكل منه كل يوم واحدة. توفي سنة خمس وتسعين ومائتين وقد اختلط في آخر عمره.

٧ ــ يحيى بن علي

ابن محمد بن الحسن بن بسطام أبو زكريا الخطيب التبريزي الشيباني، إمام اللغة والنحو، تخرج عليه خلق كثير، شرح الحماسة والمتنبي والمعلقات وغير ذلك، وكانت حصلت له نسخة من التهذيب في اللغة للأزهري في عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن عالم باللغة فدل على أبي العلاء المعرّي فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب. ومن شعره:

فمن يسأم من الأسفار يوماً * فإني قد سئمت من المقام
أقمنا بالعراق على رجال * لئام ينتمون إلى لئام

توفي فجأة في جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة.

٨ ــ الأبيوردي

أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الأبيوردي، اشتغل في الفقه على أبي حامد وبرع فيه. قال الخطيب في تاريخه: كان شاعراً فصيحاً حسن الاعتقاد متجملاً في فاقة، يقال إنه مكث سنتين لا يقدر على جبة يلبسها في الشتاء ويقول لأصحابه: بي علة تمنعني لبس المحشو. توفي في جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ـ قلت: ما أحسن قوله بي علة تمنعني لبس المحشو فإنه من الإيهام والتورية، والعلة هي علة الفلاكة شفانا الله منها.

٩ ــ الشنتريني

عبد الله بن صارة أو سارة الشاعر المشهور، كان شاعراً ناثراً ناظماً ماهراً إلّا أنه

كان قليل الحظ، ومن الحرمان لم يسعه مكان ولا اشتمل على سلطان، كان يبيع المحقرات وبعد جهد ارتقى إلى كتابة بعض الولاة، فلما كان من خلع الملوك ما كان أتى إلى إشبيلية أسود حالاً من الليل وأكثر انفراداً من سهيل، وتبلغ من الوراقة فانتحلها في كساد سوقها وخلو طريقها. وفيها يقول:

أما الوراقة فهي أنكر حرفة * أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بحالة إبرة * تكسو العراة وجسمها عريان

توفي سنة ٥١٧.

١٠ ــ العز

حسين بن محمد الشاعر الضرير الإربلي، تلميذ أفضل الدين الخلنجي، كان الشاعر المذكور بصيراً بالعربية رأساً في العقليات كلها إلّا أنه كان فيلسوفاً رافضياً تاركاً للصلاة رث الهيئة زري الشكل قبيح المنظر، يصدر منه ما يشعر بفساد العقيدة والانحلال، وابتلي مع العمى بطلوعات وقروح، وكان قذراً لا يتوقى النجاسات يهين الأكابر إذا حضر مجلسهم ولا يعتني بهم، ومع ذلك كان له هيبة وحرمة. توفي سنة ٦٦٠.

١١ ــ يحيى أو محمد أو عمر

ابن حبش الملقب شهاب الدين السهروردي أبو الفتوح المعروف بالشهاب المقتول، كان أوحد زمانه في الفلسفة والحكمة مفرط الذكاء حسن العبارة، وله تصانيف منها: الهياكل والتلويحات، والرقم القدسي في تفسير القرآن على رأي الأوائل، واللمحات في المنطق. ورد إلى حلب واجتمع بالملك الظاهر غازي فأعجبه كلامه فمال إليه فكتب أهل حلب إلى السلطان صلاح الدين: أدرك ولدك وإلّا تلف، فكتب السلطان إلى الظاهر بإبعاده عنه ثم كتب إليه بقتله، كان دنيء الهمة زري الخلقة دنس الثياب وسخ البدن لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ولا يداً من زهومة، ولا يقص ظفراً ولا شعراً، وكان القمل يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه. توفي سنة ست وثمانين وخمسمائة.

١٢ ـ الحافظ عبد الغني

ابن عبد الواحد أبو محمد المقدسي، أنزله الشيخ عبد القادر هو ورفيقه الشيخ موفق الدين بمدرسته وما كان يمكن أحداً من النزول فيها لما تفرس فيهما من الخير والصلاح، كان إمام وقته في الحديث رواية ودراية، وصنف الكتب الحسان منها نهاية المراد في كلام خير العباد نحواً من مائتي جزء ـ ومحنه كثيرة. منها أنه لما دخل أصفهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ في معرفة الصحابة، فأخذ عليه في مائة وتسعين موضعاً فطلبوه من الخجندي ليقتلوه فاختفى وخرج من أصفهان في إزار ـ ومنها أنه لما عاد إلى أصفهان دخل الموصل فقرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلي وذكر فيه أبا حنيفة وجرحه فثار عليه أصحاب أبي حنيفة وحبسوه، ولولا البرهان بن البرقي الواعظ خلصه لقتلوه ـ ومنها لما قدم دمشق من الموصل كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة ويجتمع الناس إليه وحصل له قبول فكان سريع الدمعة فحسده الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت النسر فشوش على الحافظ فصار الحافظ يقعد بعد العصر فذكر عقيدته في الكرسي فاتفق محيي الدين بن زكي الدين والخطيب الدولعي وجماعة من الدماشقة وصعدوا إلى القلعة وواليها صارم الدين برغش، فقالوا: هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه، فعقدوا له مجلساً وأحضروه وناظرهم فأخذوا عليه مواضع وارتفعت الأصوات، فقال صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم، فأمر الأسارى فنزلوا إلى جامع دمشق فكسروا منبر الحافظ وما كان في حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة ففاتتهم صلاة الظهر، ثم سافر الحافظ إلى مصر ونزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديث، وكان الملك العزيز في الصيد فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه وبعثوا بالفتوى إلى العزيز، فقال: إذا رجعنا أخرجناه، فاتفق أنه وقع عن فرسه واشتغل بنفسه ومات، وجاء الأفضل إلى مصر ولما دخل العادل مصر ومعه وزيره ابن شكر نقل إليه ما نقل إلى العزيز فعرف بزهده وفضله فأكرمه عند الدخول إليه، وأقام الحافظ في مسجد المصنع يذكر الحديث فكتب أهل مصر إلى ابن شكر يقولون: قد أفسد عقائد الناس، ويذكر التجسيم على رؤوس الأشهاد، فكتب إلى والي مصر بنفيه إلى المغرب فحدث الشيخ تاج الدين الكندي أن الوزير طلبه ليكتب بنفيه. وكان

الحافظ قد توفي فقال للكاتب: اكتب بنفيه إلى المغرب ولم يكن علم بموته. فقلت: ما تحتاجون تنفونه هو قد نفاكم. فقال ابن شكر: وكيف؟ قلت: الساعة أخبرني شخص بموته، فوجم ابن شكر ساعة كأنه ندم. وكانت وفاته في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ستمائة.

١٣ ـ محمد بن عبد الرزاق

ابن رزق بن أبي بكر العدل العالم شمس الدين بن محمد المحدث الرسعني الحنبلي، كان من أعيان الشهود تحت الساعات ومن شعره:

ولو أن إنساناً يبلغ لوعتي * ووجدي وأشجاني إلى ذلك الرشا
لأسكنته عيني ولم أرضها له * ولولا لهيب القلب أسكنته الحشا

سافر إلى مصر في شهادة ثم عاد على حمار فسرق حماره وما عليه في الطريق فرجع إلى القاهرة شاكياً فلم يحصل له مقصود، فخرج متوجهاً إلى دمشق فأتى ليسقي فرسه بالشريعة فغرق ولم يظهر له خبر. توفي سنة ٦٨٩.

١٤ ـ الخليل

ابن أحمد بن عمرو الفراهيدي الأزدي، كان إماماً في علم النحو، وهو الذي استنبط العروض وعنه أخذ سيبويه وغيره، كان متقللاً من الدنيا صبوراً على العيش الخشن الضيق، وكان يقول: لا يجاوز همي ما وراء بابي، كان له راتب على سليمان ابن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان والي فارس والأهواز فكتب إليه يستدعيه فكتب الخليل جوابه:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة * وفي غنى غير أني لست ذا مال
سخا بنفسي أني لا أرى أحداً * يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه * ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فأنشد بيتين في ذلك فأعاد راتبه. قال تلميذه النضر بن شميل: أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه

يكتسبون بعلمه الأموال، كان إذا قدم عليه سيبويه يقول: مرحباً بزائر لا يمل. توفي سنة ١٧٠.

١٥ ـ أبو الطيب الطبري

طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر أبو الطيب الطبري شيخ الشافعية، أخذ عن أبي حامد الأسفرايني وأبي الحسن الماسرجسي وصنف في الأصول والجدل وغير ذلك، كان له ولأخيه عمامة وقميص إذا لبسهما هذا جلس الآخر في البيت وقد قال في ذلك القاضي أبو الطيب:

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم * لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

بلغ مائة وستين سنة صحيح العقل والفهم والأعضاء يفتي ويقضي ويشتغل. توفي سنة ٤٥٠.

١٦ ـ أبو عثمان

ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، أخذ عنه مالك بن أنس رضي الله عنه. قال بكر بن عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأي فكنا نستزيده في حديث ربيعة فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة؟ ها هو نائم في ذلك الطاق، فأتينا ربيعة فأنبهناه وقلنا له: أنت ربيعة؟ قال: نعم، قلنا: أنت الذي يحدث عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم، فقلنا: كيف حظي مالك بك وأنت لم تحظ بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل علم. توفي سنة ١٣٦.

١٧ ـ المازني

أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني البصري، كان إمام عصره في النحو والأدب، وكان في غاية الورع ومما رواه المبرد أن بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مائة دينار في تدريسه فامتنع أبو عثمان من ذلك، فقال له المبرد: أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا كذا آية من كتاب الله، ولست أرى أن أمكّن ذمياً منها غيرة على كتاب الله

تعالى، فاتفق أن غنت جارية بحضور الواثق بقول العرجي:

* أظلوم إن مصابكم رجلاً *

واختلف من بالحضرة في رفع رجل ونصبه، فأشخصه الواثق لإعراب البيت فلما أعربه أمر له بألف دينار. توفي سنة ٦٤٩. وموضع الاستشهاد قول المبرد: أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟ ولا يقال: كان زاهداً بدليل قول المترجمين له إنه كان شديد الورع لأن الورع لا يستلزم الزهد بدليل قبوله الألف الموهوب له لأن الفاقة الدائمة يلزمها حوائج مجتمعة ومصارف مؤخرة لا تفي بها الألف ولا ما فوقها، والدنانير إنما هي دنانير بغداد وهي دراهم في الحقيقة.

١٨ ــ السيرافي

أبو سعد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النحوي، شرح كتاب سيبويه وصنف عدة تصانيف. كان نزهاً عفيفاً حسن الأخلاق، وكان معتزلياً ولم يظهر منه شيء، وكان لا يأكل إلّا من كسب يده ينسخ ويأكل. توفي سنة ٣٦٨.

١٩ ــ نجم الدين

ابن أخي قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان، كان فقيهاً فاضلاً، وولي القضاء ببعض البلاد الشامية. وكان مهووساً بالحكمة، ويقول عن نفسه: أنا حكيم الزمان. فانقطع رزقه بهذا السبب ومقت ونسبوه إلى انحلال العقيدة، فسافر إلى الديار المصرية وقعد مع الشهود حتى مات سنة ٧٦٢.

٢٠ ــ الأنماطي

إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الحافظ البارع تقي الدين أبو الطاهر ابن الأنماطي المصري الشافعي، كان إماماً ثقة حافظاً مبرزاً فصيحاً واسع الرواية ناظماً ناثراً بعيد الشبيه معدوم النظير إلّا أنه كان كثير الدعابة مع المرد. مات سنة ٦١٩.

٢١ ــ بدر الدين بن مالك

هومحمدبن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك، كان نحوياً عارفاً بعلم

البيان والعروض والأصول والمنطق ذكياً إلا أنه ينسب إلى لعب ومعاشرة من لا تليق معاشرته. توفي سنة ٦٨٦.

٢٢ ــ العفيف التلمساني

سليمان بن عليّ بن عبد الله الأديب البارع، كان حسن العشرة كريم الأخلاق ذا وجاهة وخدم في عدة جهات من المكس، كان يتهم بالخمر والفسق والقيادة كما قاله في الجزء السابع من دول الإسلام مختصر تاريخ الإسلام لعلي بن خلف، بن كامل الغزي الشافعي. قال الشيخ قطب الدين: رأيت جماعة ينسبونه إلى رقة الدين والميل إلى مذهب النصيرية، وحكى تلميذه البرهان بن الفاشوشة قال: رأيت ابنه في مكان بين ركبدارية وذا يكبس رجليه وذا يبوسه فتألمت لذلك وانقبضت، ودخلت إلى الشيخ وأنا كذلك فقال: ما لك؟ فأخبرته بالحال الذي وجدت عليه ابنه محمداً، فقال: أفرأيته في تلك الحالة منقبضاً حزيناً؟ فقلت: سبحان الله كيف يكون ذلك بل كان أسر ما يكون، فهوّن الشيخ عليّ وقال: لا تحزن أنت إذا كان هو مسروراً فعرفت قدر الشيخ وسعيه. قال الذهبي: هذا هو الشيخ الذي لا يستحي الله من عذابه. توفي سنة ٦٩٠.

٢٣ ــ الحريري

عليّ بن أبي الحسن بن منصور أبو الحسن وأبو محمد، مقدم الطائفة الحريرية صاحب الزاوية، كان له مكاشفات وكرامات، وكان عنده من القيام بواجب الشريعة كما قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامة ما لم يقم به أحد من المتشرعين ظاهراً وباطناً، ومن إقامة شرائع الحقيقة ما لم يكن عند أحد في عصره من المحافظة على محبة الله وذكره والدعاء إليه والمعرفة به، وأكثر الناس يغلطون في أمره الظاهر وفي أمره الباطن. صحب الشيخ أبا علي المغربل خادم الشيخ رسلان، كان يلبس الطويل والقصير والمدور والمفرح والأبيض والأسود والعمامة والمئزر والقلنسوة وثوب المرأة والمطرز والملون. ولما حبس سأله أصحابه أن يسأل ويتشفع فلم يفعل، فلما أقام في الحبس أربع سنين زاد سؤالهم فأمرهم أن يكتبوا قصة فيها من الخلق الضعيف إلى الرأي الشريف ممن هو ذنب كله إلى من هو عفو كله، سبب هذه المكاتبة الضعف عن المعاتبة «أصغر خدم الفقراء علي الحريري»:

فقير ولكن من صلاح ومن تقى * وشيخ ولكن في الفسوق إمـام

فسعوا في القصة وأرادوا أن تصل إلى السلطان فما قرأ أحد من الدولة القصة إلّا ورمى بهـا فبلغه ذلـك فاحتـد، وقال: مـا قلت لكم، ألم أنهكم عن السعي؟ وأقام بالحبس ست سنين وسبعة أشهر كان يعاشر الأحداث ويصحبهم ويقيمون عنده، ولم يكن عنده مراقبة ولا مبالاة بل يدخل مع الصبيان الأحداث ويعتمد معهم ما يسمـونه تخريباً، وكان له قبول عظيم لا سيما عند الأحداث فإنه كان إذا وقع نظره على أحد من الأحداث مال إليه بحيث لا ينتفع أهله به. توفي سنة ٦٤٥.

٢٤ ــ القطب الشيرازي

قـطب الدين محمـود بن مسعـود بن مصلح الشيـرازي، كـان إمـام عصـره في المعقولات وفي غاية الذكاء وله التـلاميذ الكثيـرة والتصانيف المشهـورة منها: شـرح المختصر لابن الحاجب، كان كريماً متطوحاً[١] إلّا أنه كان متهاوناً بالدين محباً للخمر ويجلس في حلق المساخر كما قاله الإسنوي في طبقاته، ومع ذلك كان معظمـاً عند ملوك التتار فمن دونهم. وهو تلميذ النصير الطوسي. توفي سنة ٧١٠.

٢٥ ــ ابن دريد

محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي اللغوي البصري، إمام عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق، كان يشرب الخمر إلى أن جاوز تسعين سنة. قـال ابن شاهين: كنا ندخل على ابن دريد فنستحي مما نـرى من العيدان المعلقـة والشراب مصفى موضوعاً. توفي سنة ٣٢١.

٢٦ ــ يحيى بن أكثم

ابن محمد التميمي المروزي أحد أعلام الدنيا، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل وغيره وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً، وكانت كتب

(١) في اللسان مادة طوح: أطاح ماله وطوّحه أي أهلكه اهـ. يعني أنه كان مفرطاً في كلامه.

يحيى في الفقه أجل كتب وتركها الناس لطولها، وكان لـه كتب في الأصول أيضـاً، وكان من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور، كان إذا رأى فقيهـاً سألـه عن الحديث، أو محدثاً سأله عن النحو، أو نحوياً سأله عن الكلام فيخجله ويقطعه، كـان ابن زيدان الكاتب يكتب بين يدي يحيى بن أكثم وكان غلاماً متناهي الجمـال فقرص القـاضي خـده فخجل الغـلام واستحيا وطـرح القلم من يده، فقـال لـه: خـذ القلم واكتب، فأملاه:

أيـا قمـراً خمشتـه فتغضبـا * وأصبـح لي من تيهـه متجنبـا
إذا كنت للتخميش والعض كارهاً * فكن أبـداً يـا سيـدي متنقبـا
ولا تظهر الأصداغ للناس فتنـة * وتجعل منها فوق خديك عقربا
فتقتـل مسكينـاً وتفتن نـاسكـاً * وتترك قاضي المسلمين معـذبا

ولما تواتر النقل عن يحيى إلى المأمون في هذا المعنى أراد امتحانه فأغـرى به مملوكاً في غاية الجمال وذهب إلى الخلاء ثم تجسس عليه فسمعه يقول له: لولا أنتم لكنا مؤمنين، فدخل المأمون وهو ينشد بيتي ابن حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً * فـأعقبنـا بعـد الـرجـاء قنـوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها * وقـاضي قضاة المسلمين يلوط

ذكر ذلك كله ابن خلكان في تاريخه وذكره الحصري في كتابه الذي سمـاه زهر الآداب، وتحامل عليه في هذا المعنى بما لا يليق ذكره، وذكر ولوع الشعراء به ومما أنشده فيه قول الشاعر:

يـا ليت يحيى لم تلده أكثمـه * ولا وطت أرض العـراق قـدمـه
ألـوط قاضي في الأنـام نعلمـه * أي دواة لـم يـلقـهـا قـدمـه
وأي جحـر لم يلجه أرقمـه

توفي سنة ٢٤٢.

٢٧ ــ محمد

ابن علي بن يوسف بن هود الشيخ الزاهـد الكبير بـدر الدين أبـو علي بن هود المرسي، أحد الأجلاء في التصوف ترك الحشمة وتغرب وصحب ابن سبعين واشتغل

بالفلسفة والطب وترهات الاتحادية وزهديات التصوف وخلط هذا بهذا، كان ذا هيبة وسكون وتلامذة، على رأسه قبعة وعلى جسده دلق، وكان غارقاً في الفكرة قليل الصلاة والذكر متواصل الأحزان، حمل مرة إلى والي البلد وهو سكران أخذوه من حارة اليهود، وكان له مشاركات في علوم شتى، توفي سنة ٦٩٩ بدمشق.

٢٨ ــ القاضي الرفيع

عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل قاضي قضاة دمشق رفيع الدين أبو حامد الشافعي، كان فقيهاً فاضلاً متكلماً مناظراً متفلسفاً رديء العقيدة مغتراً، ثم ولي قضاء دمشق في أيام صاحبها الملك الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة السامري فاتفق هو وأمين الدولة في الباطن على المسلمين فكانت عنده شهود زور ومدعون زوراً تدعي وتشهد على شخص بألف دينار فيأمره بالصلح. قال أبو المظفر ابن الجوزي: حدثني جماعة من الأعيان أنه كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزئاً بأمور الشريعة، يجيء إلى صلاة الجمعة سكران وأن داره كانت مثل الحانة، ثم أوقعت الدنيا بينه وبين الوزير فعذره السامري وسعى به عند السلطان فاعتقل ببعلبك واستأصل ماله ثم نقل إلى جبل لبنان وخنق هناك أو دفع من شاهق فوقع فمات سنة ٦٤٣.

٢٩ ــ البدر التستري

بدر الدين محمد بن أسعد التستري، إمام وقته في الأصلين والمنطق والحكمة، وضع تعاليق على البيضاوي والطوالع والمطالع متضمنة لنكت غريبة وإن كانت عباراتها قلقة ركيكة، وشرح كتب ابن سيناء. كان مداوماً على لعب الشطرنج رافضياً كثير الترك للصلاة، قال الإسنوي: ولهذا لم يكن عليه أنوار أهل العلم ولا حسن هيئتهم مع ثروته الزائدة وحسن شكله. توفي بهمذان في نيف وثلاثين وسبعمائة.

٣٠ ــ أبو عبيدة

اللغوي النحوي معمر بن المثنى، لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه، وكان الغريب يغلب عليه وأخبار العرب وأيامها، وكان يكسر الشعر ولا يقيم وزنه، وإذا قرأ أو حدث لحن اعتماداً منه، وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب

هجاء يميل إلى مذهب الخوارج لا تقبل له شهادة عند أحد من الحكام لأنه كان يتهم بالميل إلى الغلمان. قال الأصمعي: دخلت أنا وأبو عبيدة يوماً المسجد فإذا على الأسطوانة التي يجلس إليها أبو عبيدة:

صلى الإله على لوط وشيعته * أبا عبيدة قل بالله آمينا

فقال لي: يا أصمعي امح هذا، فركبت ظهره ومحوته بعد أن أثقلته فقال: أثقلتني وقطعت ظهري، فقلت: لقد بقيت الطاء فقال: هي شر حروف البيت وكان الكاتب لها أبا نواس وبعد البيت:

فأنت عندي بلا شك بقيتهم * منذ احتلمت وقد جاوزت تسعينا

توفي سنة ٢٠٩.

٣١ ـ ابن هانىء

أبو الحسن محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور، كان متهماً بمذهب الفلاسفة، مشتهراً بحب الخمر، أضافه شخص ببرقة فأقام عنده في المجلس لأُنْسٍ أيام فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه سنة ٣٦٢.

٣٢ ـ صاعد

الربعي اللغوي البغدادي أبو العلاء صاحب كتاب الفصوص، كان محسناً في السؤال حاذقاً في استخراج الأموال غير أنه كان يتهم بالكذب في نقله فلهذا رفض الناس كتابه، ولما ظهر للمنصور كذبه في النقل وعدم تثبته رمى كتاب الفصوص في النهر، فقال فيه بعض شعراء عصره:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص * وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمعه صاعد أنشد:

عاد إلى عنصره إنما * تخرج من قعر البحور الفصوص

توفي سنة ٤١٧ بصقلية.

٣٣ ـ ابن النحاس

بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد الإمام العلامة، كان من أذكياء بني آدم

وله خبرة بالمنطق وإقليدس، مشهور بالدين والصدق مع إطراء التكلف والتجمل وصغر العمامة، فيه ظرف النحاة وانبساطهم، وكان يتحدث في تعليمه وخطابه بلغة عامة الحلسيين ولا يتقعر في عبارته وأظنه لم يتزوج. توفي سنة ٦١٨.

٣٤ ـ أبو الحسن

علي بن صاعد الصدفي المنجم المعروف بابن يونس المصري المشهور صاحب الزيج الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس في أربع مجلدات كبار، كان ابن يونس المذكور أبله مغفلاً يعتم على طرطور طويل ويجعل رداءه فوق العمامة، وكان طويلاً وإذا ركب ضحك الناس منه لشهرته وسوء حاله ورثاثة لباسه، وكان له مع هذه الهيئة إصابة بليغة غريبة في النجامة لا يشاركه فيها غيره، وكان أحد الشهود ومتفنناً في علوم كثيرة. دخل مرة على الحاكم العبيدي صاحب مصر ومداسه في يده فقبل الأرض وجلس والمداس إلى جانبه والحاكم يراها وهو بالقرب منه، ولما انصرف قبل الأرض ولبسها وانصرف. توفي سنة ٣٩٩.

٣٥ ـ التاج المراكشي

تاج الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف المراكشي، حصل علوماً عديدة أكثرها بالسماع لأنه كان ضعيف البصر مقارباً للعمى، كان ذكياً عجولاً محتقراً للناس كثير الوقيعة فيهم، ولهذا عمل قاضي القضاة جلال الدين القزويني حتى أخرجه من مصر إلى دمشق مرسماً عليه. توفي فجأة سنة ٧٥٢.

٣٦ ـ العلم الأصفوني

علم الدين أحمد بن محمد بن عبد العليم المعروف بالأصفوني، كان رجلاً فاضلاً مشاركاً في علوم متعددة مشاركة جيدة، لكنه كان شرس الأخلاق مائلاً إلى الحسد لا تدوم له صحبة مع أحد لا سيما من يرى إقبال الناس عليه من أهل العلم. توفي سنة ٧٤٩.

٣٧ ـ الفخر الفارسي

الفيروزآبادي نزيل مصر الشافعي الصوفي المحقق المحدث، له مصنفات كثيرة

منها: كتاب مطية النقل وعطية العقل، والأصول والكلام وغير ذلك. كان فاضلاً بارعاً فصيحاً بليغاً متكلماً ذا معاملات ورياضات ومقامات إلّا أنه كان بذيء اللسان كثير الوقيعة في الناس لمن عرف ومن لم يعرف كثير الجراءة لا يفكر فيما يقول وعنده دعابة في غالب الوقت كذا قاله عمر بن الحاجب وابن بعطة فيما نقله عنهما عماد الدين بن كثير في طبقاته. توفي سنة ٦٢٢.

٣٨ ـ الشيخ خضر الكردي

شيخ الملك الظاهر، كاشف السلطان في أشياء كثيرة أصاب فيها وكان حظياً عنده وله المكانة الرفيعة لديه، ينزل السلطان إليه في كل أسبوع مرة أو مرتين. وبنى له جامعاً شهد عليه عند السلطان بالزنا واللواط وشرب الخمر، وكان السلطان قد قدمت له هدية من صاحب اليمن من جملتها كر نفيس فأعطاه السلطان للشيخ خضر فدفعه لامرأة وزنى بها وأحضروها وأحضروا الكر بين يدي السلطان. توفي سنة ٦٧١.

٣٩ ـ ابن الخشاب

أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي العالم المشهور في الأدب والنحو والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب، له في العلوم اليد الطولى كان فيه بذاذة[١] وقلة اكتراث بالمأكل والملبس، زاد الحافظ الذهبي ناقلاً له عن ابن النجار وجمال الدين القفطي: إنه كان بخيلاً وسخاً قذراً، تبقى عمامته على رأسه حتى تتقطع مما يلي رأسه من الوسخ ويرمي عليها العصافير ذرقها فيتركه على حاله، ولم يتزوج قط ولا تسرى، وكان يستقي بجرة مكسورة ويلعب بالشطرنج حيثما وجده، ويقف على المشعبذ وأصحاب النرود، ويستعير الكتاب فلا يعيده متعللاً بضياعه بين كتبه، وكان مزاحاً ـ وساق ابن النجار عنه من ذلك حكايات فمنها أنه قرأ عليه بعض المعلمين قول العجاج:

أطرباً وأنت قنسري * وإنما يأتي الصبا الصبي

---

(١) البذاذة سوء الحال، وبذّ الهيئة وبذّها رثّها اهـ من القاموس.

فجعله الصبي بالياء فيهما فقال له: هذا عندك في المكتب فاستحى - ومنها أنه سأله بعض تلامذته فقال: القفا يمد أويقصر، فقال: يمد ثم يقصر-ومنها أنه سأل بعض تلامذته ما بك؟ فقال: فؤادي يوجعني، فقال: لو لم تهمزه ما وجعك. توفي سنة ٥٦٧.

٤٠ ـ ابن بري

أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن بري المقدسي الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية، كان علّامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره، وله على كتاب الصحاح للجوهري حواش فائقة استدرك فيها عليه مواضع، كان عارفاً بكتاب سيبويه وكانت فيه غفلة ولا يتكلف في كلامه ولا يتقيد بالإعراب بل يسترسل في حديثه كيفما اتفق. قال يوماً لبعض تلاميذه: اشتر لي هندبا بعروقو فقال له التلميذ: هندبا بعروقه فعز عليه كلامه وقال: لا تأخذه إلّا بعروقو وإن لم يكن بعروقو فلا آكله. ومن غفلته أنه كان يدخل الحطب والبيض جميعاً في كمه وعليه الثياب الفاخرة وربما جاء إلى البيت فلم يجده مفتوحاً فيرمي بالبيض من الطاق إلى داخل، ويضع العنب بين الحطب فيتفجر وينقط على رجليه فيقول: مطر والسماء صاحية. وقريب من حكاية رمي البيض ما نقل عن أبي علي الشلوبين أنه وقع من يده كراس في الماء وبقي معه آخر فجره به من الماء فتلفا جميعاً. توفي سنة ٥٨٢.

٤١ ـ الباجي

علاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالباجي الإمام في الأصلين والمنطق الفاضل فيما عداها من أذكياء الناس، قريحته لا تكاد تنقطع إلّا أنه كان قليل المطالعة جداً ولا يكاد أحد يراه ناظراً في كتاب، وكذلك نقل عن محمد بن زياد أبي عبدالله بن الأعرابي صاحب اللغة أنه كان يحضر مجلسه زهاء مائة نفس كل يسأله أو يقرأ عليه وهو يجيب من غير كتاب. قال أبو العباس: لزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط. توفي ابن الأعرابي سنة ٢٢١. وكان الباجي المذكور يجلس في حوانيت الشهود وناب في الحكم بالشارع ثم ترك ذلك كله وأعرض عن التكلف في حاله كله. توفي سنة ٧١٤.

٤٢ ـ الحافظ المزي

بكسر الميم أبو الحجاج جمال الدين يوسف الحلبي المعروف بالمزي، انتهت إليه الرحلة من أقطار الأرض، كان إماماً في اللغة والتصريف، صنف تهذيب الكمال في أسماء الرجال وكتاب الأطراف، ودرس بدار الحديث كان منقبضاً عن الناس طارحاً للتكلف فقيراً. توفي سنة ٧٤٢.

٤٣ ـ أبو جعفر

أحمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس المصري النحوي، كان من الفضلاء وله التصانيف المفيدة منها: إعراب القرآن، والناسخ والمنسوخ، وتفسير أبيات سيبويه بما لم يسبق إلى مثله، وفسر عشرة دواوين وأملاها، وله كتاب طبقات الشعراء وله شرح الحماسة وله غير ذلك، وكان فيه خساسة وتقتير على نفسه، وإذا وهب عمامة قطعها ثلاث عمائم بخلاً وشحاً، وكان يلي شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على أهل معرفته، ومع هذا كان للناس رغبة كثيرة في الأخذ عنه. توفي بمصر سنة ٣٣٨ وكان سبب موته أنه جلس على درج المقياس على شاطىء النيل وأخذ يقطع العروض من الشعر فقال بعض العوام: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار فدفعه برجله في النيل فلم يوقف له على خبر والنحاس نسبة إلى الصفر.

٤٤ ـ مروان بن أبي حفصة

الشاعر المشهور المشكور، كان يمدح الخلفاء والبرامكة ومعن بن زائدة، وكان يحصل له من الأموال شيء كثير جداً، وكان مع ذلك من أبخل الناس لا يكاد يأكل من اللحم من بخله ولا يشعل في بيته سراجاً ولا يلبس من الثياب إلّا الكرابيس والفرو الغليظ، خرج يوماً إلى المهدي فقالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لي منه شيئاً، فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم، فأعطاه ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانيق. توفي سنة ١٨٢.

٤٥ ــ محمد بن داود

ابن علي أبو بكر الفقيه ابن الفقيه الطاهري بن الطاهري، كان عالماً بارعاً أديباً شاعراً فقيهاً ماهراً. قال ابن كثير: قال ابن الجوزي في المنتظم: وقد ابتلي بحب صبي اسمه محمد بن جامع، ويقال: محمد بن زخرف ويعشقه ولم يزل ذلك دأبه فيه مع العفاف حتى كان سبب وفاته. وقيل عنه أنه كان يبيح العشق بشرط العفاف، وحكى هو عن نفسه أنه لم يزل يتعشق مذ كان في الكتاب وأنه صنف كتاب الزهرة في ذلك، وكان يتناظر هو وأبو العباس بن شريح فقال له ابن شريح يوماً: أنت بكتاب الزهرة أمهر منك بهذا فقال له: أتعيرني بكتاب الزهرةوأنت لا تحسن تشم قراءته وهو كتاب جمعناه هزلاً فاجمع أنت مثله جداً. توفي سنة ٢٩٧.

٤٦ ــ الحسن بن سفيان

ابن عامر أبو العباس الشيباني النسوي محدث خراسان، والذي كانت تضرب آباط الإبل إليه في معرفة الحديث والفقه، رحل إلى الآفاق وتفقه على أبي ثور وأخذ الأدب من أصحاب النضر بن شميل، اتفق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم لطلب الحديث فضاقت عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون فيها شيئاً ولا يجدون ما يبيعونه للقوت، واضطرهم الحال إلى تجشم السؤال وأنفت نفوسهم من ذلك والحاجة تضطرهم، فاقترعوا فيما بينهم أيّهم يقوم بهذا الأمر فوقعت القرعة على الحسن بن سفيان فقام عنهم واختلى في زاوية المسجد وصلى ودعا فما انصرف من الصلاة حتى دخل شاب حسن الهيئة فقال: الأمير ابن طولون يعتذر إليكم وهذه مائة دينار لكل واحد منكم، فقلنا: وما الحامل؟ فقال: إنه أحب أن يختلي فجاءه فارس بيده رمح في الهواء، وقال: قم فأدرك الحسن وأصحابه فإنهم في المسجد الفلاني جياعاً. توفي سنة ٣٠٣.

٤٧ ــ بشر بن غياث

أبو عبد الرحمن المرسي المتكلم شيخ المعتزلة، وإليه تنسب الطائفة المرسية، راج عند المأمون وحظي عنده. كان لا يحسن النحو وكان يلحن لحناً فاحشاً كما قاله

ابن كثير. توفي في ذي الحجة سنة ٨١٢ وصلى عليه عبيد الشوبيري المحدث فليم في ذلك فقال: ألا تسمعون كيف دعوت له في صلاتي؟ قلت: اللهم إن عبدك هذا كان ينكر عذاب القبر اللهم فأذقه عذاب القبر، وكان ينكر شفاعة نبيك فلا تجعله من أهلها، وكان ينكر رؤيتك في الدار الآخرة فاحجب وجهك الكريم عنه. وهذا معنى ما قاله بعض السلف من كذب بكرامة لم ينلها قاله ابن كثير.

٤٨ ــ واصل بن عطاء المعتزلي

أبو حذيفة المعروف بـالغزال لملازمته الغـزالين أحد الأئمـة البلغاء المتكلمين، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً ولكونه قبيح اللثغة في الراء كان يخلص كلامه منها ولا يفطن لذلك أحد لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه، وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله:

وجعلت وصلي الراء لم تنطق به * وقـطعتني حتى كـأنـك واصـل

كان طويل العنق فنظر إليه عمر بن عبيد فقال من قبل أن يكلمه: لا يصلح هذا ما دامت عليه هذه العنق. توفي سنة ١٣١.

٤٩ ــ أبو حاتم الرازي

محمـد بن إدريس بن المنذر أبـو حاتم الحنـظلي الرازي أحـد الحفاظ الأثبـات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل، وهو قرين أبي زرعة الرازي تغمدهما الله برحمته، سمع الكثير وطاف الأقطار والأمصار وروى عن خلق من الكبار، وحدث عنه الربيع بـن سليمان ويونس بن عبد الأعلى وهما أكبر منه. قال لابنه عبد الرحمن: يا بني مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ، وذكر أنه لم يكن له شيء ينفق منه في بعض الأحيان وأنه مكث ثلاثاً لا يأكل شيئاً حتى استقرض من بعض أصحابه نصف دينار. توفي سنة ٢٧٧.

٥٠ ــ سيبويـه

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري الحجة في النحو والعلم فيه، إمام النحاة. شرح النحاة كتابه فانغمروا في لجج بحره واستخرجوا من جواهره حاصله ولم يبلغوا

إلى قعره، وزعم ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه وقد ساعده جماعة في تصنيفه كانوا نحواً من أربعين نفساً هو أحدهم وهو أصول الخليل بن أحمد ونكته فادعاه سيبويه لنفسه هكذا نقله ابن كثير عن ثعلب، ونقله في مرآة الزمان عن أبي عبد الله المرزباني وتعقبه وقال: هذا وهم من المرزباني لإجماعهم على أن سيبويه هو الذي جمع أوزان العرب وحصرها وقرر أصول الكتاب وفصوله ورتب أبوابه. وقال ابن كثير بعد نقله ذلك عن ثعلب: وقد استبعده السيرافي في طبقات النحاة. ولما قدم سيبويه بغداد وناظر الكسائي وأصحابه فلم يظهر عليهم سأل عمن يرغب من الملوك في النحو فقيل: طلحة بن طاهر فشخص إلى خراسان فلما انتهى إلى ساوه مرض مرض الموت فتمثل:

يؤمل دنيا لتبقى له * فمات المؤمّل قبل الأمل
حثيثاً يروّي أصول الفسيل * فعاش الفسيل ومات الرجل

توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة، سنة ١٨٠ .والفسيل والفسيلة الوديّ وهو صغار النخل والجمع الفسلان قاله الجوهري.

٥١ ـ شريك

ابن عبد الله بن أبي شريك أبو عبد الله القاضي النخعي الكافي، سمع أبا إسحاق السبيعي وغير واحد، أكرهه المنصور على القضاء كان مشكوراً في حكمه وإمضائه إياه على الأكابر. ذكر الخطيب بسنده أن عمر بن الهياج قال: كنت صاحب شريك فأتيته يوماً فخرج إليّ في فرو ليس تحته قميص وعليه كساء، فقلت له: لقد أصبحت عن مجلس الحكم فقال: غسلت أمس ثيابي فلم تجف وأنا منتظر جفافها، اجلس قال: فجلست فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير إذن مولاه، وكانت الخيزران قد وجهت رجلاً نصرانياً وكتبت إلى موسى بن عيسى لا يعصي له أمراً، فظلم رجلاً فتعلق ذلك الرجل بشريك فاقتص له منه بيده ثم عاد يذاكر عمر في العبد تزوج كأن لم يفعل شيئاً، وقد ساق الحكاية بطولها في مرآة الزمان ناقلاً لها عن الخطيب. قال في مرآة الزمان: وقد روي عن ابن عون أن شريكاً كان يشرب النبيذ المثلث على رأي أهل العراق وبذلك عابوه. توفي سنة ١٧٧ .

٥٢ ــ ابن يونس

موسى بن محمد بن منعة المعروف بابن يونس الموصلي الشافعي أحد المتبحرين في العلوم المتنوعة، قيل: إنه كان يتقن أربعة عشر علماً. كان يقرأ عليه الحنفيون كتبهم، وكان يقرأ عليه أهل الكتاب التوراة والإنجيل فيقرون أنهم لم يسمعوا بمثل تفسيره لها، وكان الشيخ تقي الدين بن الصلاح يبالغ في الثناء عليه، فقيل له يوماً: من شيخه؟ فقال: هذا الرجل خلقه الله عالماً لا يقال على من اشتغل فإنه أكبر من هذا. قال ابن خلكان: وكان يتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه. توفي سنة ٦٣٩.

وأنشد العماد المعري في ابن يونس:

أجدك إن قد جاد بعد التعبس * غزال بوصل لي وأصبح مؤنسي
وعاطيته صهباء من فيه مزجها * كرقة شعري أو كدين ابن يونس

قال الموفق عبد اللطيف: وكان مستغرق الوقت والعقل في حب الكيمياء حتى صار يستخف بكل ما عداها.

٥٣ ــ أبو بكر النيسابوري

عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري الحافظ الفقيه الشافعي العلامة المعروف بأبي بكر بن زياد، قال يوسف القواس: سمعت أبا بكر النيسابوري يقول: أتعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل ويتقوت كل يوم بخمس حبات؟ ثم قال: أنا هو. توفي سنة ٣٢٢.

٥٤ ــ محمد شمس الدين

أبو عبد الله ابن الإمام العلامة عفيف الدين التلمساني الشاعر ابن الشاعر، تعانى الكتابة وولي عمالة الخزانة كان فيه عشرة ولعب وخلاعة كما قاله الغزي في مختصر تاريخ الإسلام ـ قال في الذيل: وكان شمس الدين محمد المذكور قد أضافه أولاد المشطوب وطلبوا منه أن يبيت عندهم فقال لهم: أعلموا والدي بمبيتي عندكم حتى لا يتشوش خاطره هو والوالدة، فبعثوا إلى والده الشيخ عفيف الدين ولدهم العماد

إسماعيل وهو يومئذ من أحسن الفتيان صورة لإعلام الشيخ عفيف الدين بمبيت ولده عندهم، فتكلم عفيف الدين بديهاً هذين البيتين، وبعث بهما صحبة العماد إسماعيل:

بعثتمو لي رسولاً في رسالته حلو المراشف والأعطاف والهيف
ووقدتما ويسير ذاك أنكما أوقدتما النار في بادي الضنى دنف

فرد عليه ولده شمس الدين بديهاً وكتب على ظهر الرقعة:

مولاي كيف انثنى عنك الرسول ولم تكن لوردة خديه بمقتطف
جاءتك من بحر ذاك الحسن لؤلؤة فكيف ردّت بلا ثقب إلى الصدف

لما قدم السجاعي دمشق خاف منه شمس الدين لكونه كاتب الخزانة خوفاً عظيماً انقطع منه قلبه، فمات شاباً سنة ٦٨٨.

٥٥ ـ ابن حزم

أبو محمد علي الظاهري الإمام العلامة الحافظ المجتهد، كان كثير الوقوع في العلماء فنفرت عنه القلوب وتألب عليه الفقهاء واتفقوا على بغضه وتضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو منه، فأقصته الملوك وشردته عن بلادها حتى انتهى إلى بادية فلاة فتوفي بها سنة ٤٥٦.

٥٦ ـ أبو الحسن

علي بن بوعت، كان شاعراً مجيداً إلّا أنه كان قليل الحظ من الدنيا، لم يزل رقيق الحال ضعيف القدرة إلى أن توفي وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة بمصر سنة ٤١٦.

٥٧ ـ أبو حاتم السجستاني

قال التبغاشي وغيره: كان أفضل أهل زمانه علماً وورعاً، وبلغ من فضله أنه كان يتصدق كل يوم بدينار ويختم القرآن في كل أسبوع، وكان من أظرف أهل زمانه وأطيبهم خلوة وأحسنهم مفاكهة إلّا أنه كان مولعاً بالغلمان يذهب فيهم مذهب الاستمتاع بالنظر لا قضاء الوطر، وذكر أن المبرد أبا العباس كان يحضر حلقته يقرأ

عليه، وكان المبرد من أجمل أهل زمانه، فقال فيه أبو حاتم:

وقف الجمال بخده   فسما به حذو الإمام
حركاته وسكونه   تحيا بها مهج الأنام
فإذا خلوت بمثله   وعزمت فيه على اغترام
لم أعد أفعال العفا   ف وذاك أوكد للغرام
نفسي فداؤك يا أبا الـ   ـعباس حل بك اعتصام
فارحم أخاك فإنه   نزر الكرى بادي السقام
وأنله ما دون الحرا   م فليس يطمع في الحرام

وقرأت من خط الشيخ شهاب الدين السجستاني «أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ثم البصري النحوي المقري صاحب المصنفات: أخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأصمعي وغيرهم، وحمل الناس القرآن والحديث والعربية، وكان جماعاً للكسب وله اليد الطولى في اللغة والشعر والعروض والمعمى، ولم يكن حاذقاً في النحو وله إعراب القرآن وكتاب ما يلحن فيه العامة والمقصور والممدود وكتاب القسي والنبال والسهام وكتاب الهجاء وكتاب الشتاء والصيف وكتاب النحل والعسل، وكان أبو العباس المبرد يلازم حلقته وهو غلام وسيم في نهاية من الجمال، فعمل فيه أبو حاتم وذكر الأبيات المذكورة توفي سنة ٢٥٠.

٥٨ ـ ابن الجبان

الأصفهاني محمد بن علي بن عمر بن الجبان الأصفهاني أبو منصور، أحد حساب الريّ وعلمائها الأعيان، جيد المعرفة باللغة، ومن تصانيفه كتاب أبنية الأفعال وكتاب الشامل في اللغة وهو كتاب كبير وشرح الفصيح وهو حسن. قال ياقوت: وجدت خطه على كتاب الشامل له وقد كتبه في سنة ٤١٦، وذكره يحيى بن منده فقال: بينه وبين الصاحب ابن عباد مكاتبات، وعلق غلاماً من الديلم يقال له التركاني فاتفق للغلام أنه عزم على الحج فلم يجد ابن الجبان بداً من موافقته ومرافقته، فلما بلغا الميقات وأحرما وأخذا في التلبية قال ابن الجبان: لبيك اللهم لبيك والتركاني ساقني إليك وكان هجيراه:

يا نسيم الروض في السحر   وشبيه الشمس والقمر
إن من أسهرت ليلته   لقرير العين بالسهر

ثم ابتلي بفراقه فكتب إليه:

يا وحشتي لفراقكم   أترى يدوم على هذا
الموت والأجل المتاح   وكل معضلة ولا ذا

نقلت هذه الترجمة من خط الشيخ نور الدين الأبياري.

٥٩ ـ السهيلي

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد أبو القاسم وأبو زيد وأبو الحسن الخثعمي السهيلي الأندلسي المالقي النحوي الحافظ. ناظر علي بن الحسن بن الطراوة في كتاب سيبويه وسمع منه كثيراً من كتب اللغة، ذكر أنه استخرج الروض الأنف من نيف وعشرين ومائة ديوان، وله كتاب التعريف والأعلام بما أبهم في القرآن، وكتاب شرح آية الوصاية وشرح الجمل ولم يتمه، واستدعي إلى مراكش ليسمع بها وبها توفي. قال ابن خلكان: وكان يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حتى نمى خبره إلى صاحب مراكش فطلبه وأحسن إليه وأقام بها نحو ثلاثة أعوام ثم توفي سنة ٥٨١.

٦٠ ـ ابن دحية الكلبي

العلامة أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي بن محمد بن الجميل المعروف بابن دحية الكلبي، كان يكتب لنفسه ذو النسبتين بين دحية والحسين وأنه سبط أبي السام الحسيني الفاطمي. كان له التصانيف الفائقة والرحلة الواسعة والدراية الحسنة بالنحو واللغة والحديث متناً واسناداً وروى عن جماعة وروى عنه جماعة، طول الحافظ الذهبي روايته ومن روى هو عنه وأطال ترجمته إلى أن قال: قال ابن واصل: وكان أبو الخطاب مع فرط معرفته بالحديث متهماً بالمجازفة في النقل، وبلغ ذلك الملك الكامل وقد بنى له دار الحديث بالقاهرة فأمره أن يعلق شيئاً على أحاديث الشهاب فعلق كتاباً تكلم فيه على أحاديثه وإسناده، فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد حين: قد ضاع مني فعلق لي مثله ففعل، فجاء في الثاني بمناقضة الأول فعلم السلطان صحة ما نقل عنه وعزله من دار الحديث. قال ابن نقطة: كان يدّعي أشياء لا حقيقة لها ـ ذكر لي أبو

القاسم بن عبد السلام وهو ثقة قال: نـزل عندنـا ابن دحية فكـان يقول: أنـا أحفظ صحيح مسلم والترمذي فخلطنا له أحاديث من الترمذي بأحاديث موضوعة وامتحناه بها فلم يعرف منها شيئاً. قال ابن خلكان: وصنع للمظفر صاحب إربل قصيدة ادعى أنها له فظهرت في ديوان الأسعد بن مماتي. قال الذهبي: وكذلك نسبه شيء لا حقيقة له قرأت بخط ابن مهدي: كان أبوه تاجراً يعرف بالكلبي بين الفاء والباءِ، وهو اسم موضع بدانية، وكان أبو الخطاب يكتب أولاً «الكلبي الكلفي» معاً إشارة إلى النسب والبلد. توفي سنة ٦٣٣.

٦١ ـ المسعودي

شارح المقامات محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود أبو سعيد وأبو عبد الله ابن أبي السعادات المسعودي الخراساني، روى عن جماعة وروى عنـه جماعة، وكان المحدثون يلينونه كما قال الذهبي. وقال ابن خليل الآدمي: لم يكن في نقله بثقة ولا مأمون. توفي سنة ٥٨٤.

٦٢ ـ الشاطبي

القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الأندلسي الشاطبي المقرىء أحد الأعلام، كان إماماً علامة نبيلاً واسع المحفـوظ كثير الفنـون بارعـاً في القراءات وعللهـا، حافـظاً للحديث أستاذاً في العربية، وقصيدتاه في القراءات والرسم مما يدل على تبحـره - قال الذهبي: وصبر على فقر شديد ثم قدم القاهرة فطلبه الفاضل للإقـراء بمدرستـه فأجاب بعد شروط اشترطها ـ قال السخاوي: أقطع بأنه كان مكـاشفاً وأنـه سأل الله تعالى كفاف حاله، ما كان أحد يعلم أي شيء هو ـ توفي سنة ٥٩٥.

٦٣ ـ ابن طارق

أحمد بن طارق بن سنان أبو الـرضى الكركي الأصـل البغدادي المـولد التـاجر المحدث، سمع من أبي نصر موهوب بن الجواليقي وأبي الفضل بن الأرموي وأحمد ابن طاهر المهسي وجماعة غيرهم، طول روايته وذكر من روى عنه الذهبي ثم قـال: قال ابن النجار: إلّا أنه كان غالياً في التشيع شحيحاً مقتراً على نفسه، يشتري من لقم

المكدين ويتبع المحدثين ليأكل معهم ولا يشعل في بيته ضوءاً، وخلف تجارة تساوي ثلاثة آلاف دينار. مات في سنة ٥٩٢ وبقي في بيته أياماً لا يدرى به، وأكلت الفأرة أذنيه وأنفه.

٦٤ ــ القاضي الفاضل

أبو علي ابن القاضي الأشرف أبي الحسين اللخمي العسقلاني البيساني، مسوّدات رسائله لا تقصر عن مائة مجلد. قال الموفق عبد اللطيف: كان قليل النحو لكن له دربة قوية تعرض له قلة اللحن، وكان متقللاً في مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين، وكان فيه سوء خلق يكتمه ولا يظهره ـ توفي سنة ٥٩٦.

٦٥ ــ ابن بيان

ذو الرياستين محمد بن محمد ذي الرياستين بن أبي الطاهر الأبياري المصري أبو الفضل، سمع من خلق وكتب الكثير بخطه وتولى ديوان النظر في الدولة المصرية وتقلب في الخدم في الأيام الصلاحية، وكان القاضي الفاضل ممن يغشى بابه ويمتدحه ويفتخر بالوصول إليه، فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضي الفاضل: هذا رجل كبير القدر يصلح أن يجري عليه ما يكفيه ويجلس في بيته ففعل به ذلك، ثم إنه توجه إلى اليمن ووزر لسيف الإسلام ثم عاد وعليه ديون ثقيلة، وأدى أمره إلى أن جلس في الجامع الأزهر وكان ينتقص القاضي الفاضل لا يراه بالعين الأولى والفاضل يقصر في حقه فيقصر الناس معه مراعاة له، وكان بعض من له عليه دين أعجمياً جاهلاً فصعد إلى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته ففر وألقى نفسه من سطح الجامع فتهشم وحمل إلى داره فبقي أياماً ثم مات سنة ٥٩٦.

٦٦ ــ ابن بصيلة

عبد الله بن خلف بن رافع الحافظ أبو محمد بن بصيلة المكي الأصل القاهري، كان حافظاً محصلاً عالماً بالتواريخ والوفيات، وجمع مجاميع مفيدة وشرع في تاريخ مصر وعجز عن إكماله لضيق ذات يده ـ توفي سنة ٥٩٨.

٦٧ ـ شميم

عليّ بن الحسن بن عنبر الأديب أبو الحسن النحوي المعروف بشميم الشاعر الحلّي، قدم بغداد وتأدب بها على أبي محمد بن الخشاب وغيره، وحفظ كثيراً من أشعار العرب وأحكم اللغة والعربية. وقال الشعر الجيد إلّا أن حمقه أخره ـ قال الذهبي: قرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموماني قال بعض العلماء: وردت إلى آمد سنة ٥٩٤ فرأيت أهلها مطبقين على وصف هذا الشيخ فقصدته ودخلت عليه فوجدته شيخاً كبيراً نحيف الجسم وبين يديه حمدان مملوء كتباً من تصانيفه، فسلمت عليه ثم قلت: إنما جئت لأقتبس من علومك شيئاً، فقال: أي علم تحب؟ قلت الأدب، قال: إن تصانيفي في الأدب كثيرة وذلك أن الأوائل جمعوا أقوال غيرهم وبوبوها، وأما أنا فكل ما عندي من نتائج فكري فإنني قد عملت كتاب الحماسة وأبو تمام جمع أشعار العرب في حماسته، وأنا فعلت حماسة من شعري، ثم سب أبا تمام وقال: رأيت الناس مجمعين على استحسان خمريات أبي نواس فعملت كتاب الخمريات من شعري، ورأيتهم مجمعين على خطب ابن نباتة فعملت خطباً وجعل يزري بالمتقدمين ويصف نفسه ويجهل الأوائل ويقول: ذلك الكلب قال كذا، قلت: فأنشدني شيئاً من شعرك، فأنشدني من الخمريات له فاستحسنت ذلك فغضب وقال: ويلك ما عندك غير الاستحسان!! فقلت: فما أصنع؟ قال: تصنع هكذا، ثم قام يرقص ويصفق إلى أن تعب ثم جلس يقول: ما أصنع ببهائم، ثم شطح في الكلام وقال: ليس في الوجود إلا خالقان واحد في السماء وواحد في الأرض فالذي في السماء هو الله تعالى، والذي في الأرض أنا، ثم التفت إليّ وقال: هذا لا يحتمله العامة لكونهم لا يفهمونه أنا لا أقدر على خلق شيء إلّا خلق الكلام، فقلت: يا مولانا أنا محدث وإن لم يكن في المحدث جراءة مات بغيظه، وأحب أن أسألك عن شيء فتبسم وقال: ما أراك تسأل إلّا عن معضلة هات، فقلت: لم سميت شميماً؟ فشمني وقال: اعلم أنني بقيت مدة لا اتغوط ثم يجيء كالبندقة من الطين فكنت آخذه وأقول لمن أنبسط إليه شمه فإنه لا رائحة له فلقبت بذلك أرضيت يا ابن الفاعلة ـ قال ابن النجار: كان أديباً مبرزاً في علم اللغة والنحو لكنه كان أحمق قليل الدين رقعاً يستهزىء بالناس ولا يعتقد أن في الدنيا مثله ولا يكون أبداً ـ وحكى ابن العديم

بسنده أنه كان لا يأكل إلاّ التراب فكان رجيعه يجيء يابساً لا ريح له فيجعله في جنبه فمن دخل عليه أشمه إياه ويقول: قد تجوهرت ـ توفي سنة ٦٠١ وله عدة كتب كثيرة يطول ذكرها.

٦٨ ـ الجزولي

عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى العلامة أبو موسى الجزولي اليزدكتني المراكشي النحوي، حج ولزم العلامة عبد الله بن بري وأخذ العربية عنه جماعة، وكان علامة لا يشق غباره في النحو مع جودة التفهيم وحسن العبارة، وأتى في مقدمته بالعجائب حتى إن الشخص يعرف المسألة من النحو معرفة جيدة وإذا رآها في الجزولية يدور رأسه فيها، واسم هذه المقدمة القانون وكان ينكر أنها له تورعاً لأنها نتائج بحوثه على ابن بري وبحوث رفقائه، ويللبخت جده رجل بربري وجزولة بطن من البربر. وقال الذهبي: وقرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموقاني أن الجزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيراً من الفقر ولم يدخل مدرسة وكان يخرج إلى الضياع يؤم بقوم فيحصل ما ينفقه في غاية الصبر ورجع إلى المغرب فقيراً مدقعاً فلما وصل إلى المرية أو نحوها رهن كتاب ابن السراج الذي قرأه على ابن بري وعليه خطه فأنهى المرتهن أمره إلى الشيخ أبي العباس المغربي أحد الزهاد بالمغرب، وكان يصاحب بني عبد المؤمن فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان فأمر بإحضاره وقدمه وأحسن إليه انتهى ـ وصنف كتاباً في شرح أصول ابن السراج وأخذ عنه النحو أبو علي الشلوبين ويحيى بن معطي ـ توفي سنة ٦٠٧.

٦٩ ـ التاج الكندي

زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن العلامة تاج الدين أبو اليمن الكندي البغدادي المقرىء النحوي اللغوي، أعلى أهل الأرض إسناداً في القراءات ـ قال ابن النجار: كان أعلم أهل زمانه بالنحو، أظنه يحفظ كتاب سيبويه ما دخلت عليه قط إلاّ وهو في يده يطالع فيه وهو في مجلد واحد بخط رفيع والشيخ يقرأه بلا كلفة، وقد بلغ التسعين ـ قال القفطي: كان بحلب يبتاع الخليع من الملبوس ويتجر به إلى بلد الروم ثم ترقت به الحال، وكان ليناً في الرواية معجباً بنفسه فيما يذكره ويرويه إذا نوظر جبه بالقبيح،

ولم يكن موفق العلم رأيت له أشياء باردة ـ قال: واشتهر عنه أنه لم يكن صحيح العقيدة قال الموفق عبد اللطيف: كان معجباً بنفسه مؤذياً لجليسه ـ توفي سنة ٦١٢.

٧٠ ـ ياقوت

ابن عبد الله شهاب الدين الرومي الحموي البغدادي الإمام النحوي اللغوي الأخباري، صنف كتاب معجم البلدان، وكتاب معجم الأدباء وإرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء في أربع مجلدات، وأخبار الشعراء المتأخرين، ومعجم الشعراء، وكتاب المشترك وضعاً المختلف صقعاً، وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ، وكتاب المقتضب في النسب. اتفق له مرة أنه تنقص علياً رضي الله عنه فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه فهرب إلى حلب ثم إلى الموصل وإربل ودخل خراسان واستوطن مرو يتجر، ثم دخل خوارزم فصادفه خروج التتار فانهزم بنفسه وقاسى شدائد وتوصل إلى الموصل وهو فقير داثر ـ قال الذهبي: قال جمال الدين القفطي في تاريخ النحاة له: إنه كتب إليه رسالة من الموصل شرحاً لما تم على خراسان ومنها كان المملوك لما فارق مولاه أراد استعتاب الدهر الجامع واستدرار حلب الزمان الجامح اغتراراً بأن الحركة بركة والاغتراب داعية الاكتساب، فامتطى غارب الأمل إلى الغربة وركب ركوب التطواف مع كل صحبة فلم يرث له دهره الخؤون ولا رق له زمانه المفتون:

إن الليالي والأيام لو سئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطر أو إدراك أرب ومع عبوس الحظ ابتسام الدهر الكظ، ولم أزل مع الدهر في تفنيد وعتاب حتى رضيت من الغنيمة بالإياب وهي طويلة ـ توفي سنة ٦٢٦.

٧١ ـ ابن معطي

يحيى بن عبد النور الشيخ زين الدين أبو الحسين الزواوي المغربي النحوي الحنفي، صنف في الأدب والنحو والعروض وحمل الناس عنه، وكان إماماً مبرزاً في علم اللسان شاعراً محسناً وكان أحد الشهود بدمشق وليس له من طرق الكسب ما يقوم بكفايته كما قال الحافظ الذهبي، فحضر مع العلماء عند الملك الكامل وكان له طرف

من النحو فسألهم فقال: زيد ذهب به، هل يجوز في زيد النصب؟ فقالوا: لا. فقال ابن معطي: يجوز النصب على أن يكون المرتفع بذهب المصدر الذي دل عليه ذهب وهو الذهاب، وعلى هذا فموضع الجار والمجرور الذي هو به النصب فيجيء من باب زيد مررت به إذ يجوز في زيد النصب فكذلك ههنا، فاستحسن السلطان جوابه وأمره بالسفر معه إلى مصر فسافر وقرر له معلوماً. قال الذهبي: فلم تطل مدة حياته فتوفي سنة ٦٢٨.

٧٢ ـ أبو حامد

الأسفرايِّني أحمد بن محمد بن أحمد الأسفرايِّني الشيخ أبو حامد بن أبي طاهر شيخ طريقة العراق، بل إمام المذهب على الإطلاق، شيخ الإسلام والمسلمين قاطبة ورحلة الطلاب، طبق الشيخ أبو حامد الأرض بالأصحاب وجمع مجلسه ثلاثمائة متفقه واتفق الموافق والمخالف على تفضيله، حتى قال أبو الحسين القدوري: هو عندي أفقه أو أنظر من الشافعي وأفتى، وهو ابن سبع عشرة سنة، وقام يفتي الى ثمانين سنة. انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا حتى إنه قال للخليفة: إنك لست بقادر على عزلي من ولايتي التي أولاني الله تعالى إياها، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاثة أعزلك عن خلافتك، وأرسل إلى مصر فاشترى أمالي الشافعي بمائة دينار ـ قال السبكي في الطبقات عن سليم الرازي: إن الشيخ أبا حامد كان يحرس في درب، وكان يطالع في زيت الحرس، ويأكل من أجرة الحرس ـ توفي في شوال سنة ٤٥٦.

٧٣ ـ ابن عنين

محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسين بن عنين الأديب الرئيس شرف الدين أبو المحاسن الأنصاري الكوفي الدمشقي الشاعر المشهور، سمع من الحافظ أبي القاسم بن عساكر، كان غزير المادة مطلعاً على أشعار العرب، واشتغل على القطب النيسابوري والفخر الرازي وجال في البلاد ومدح الملوك والوزراء، وهجا الصدور والكبراء، أقامه الملك المعظم مقام نفسه في ديوانه فأحسن السياسة إلّا أنه في الأخير ظهر منه سوء اعتقاد وطعن في السلف واستهتار بالشريعة، وكثر عسفه وظلمه وترك

الصلاة وسب الأنبياء صلوات الله عليهم، ولم يزل يستورد الخمر إلى ما قبل وفاته بقليل - توفي سنة ٦٣٠.

٧٤ ـ ابن حمويه

اليزدي علي بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين حمويه الإمام أبو الحسن اليزدي الشافعي المقرىء المحدث نزيل بغداد، حدث عن خلق ذكرهم الحافظ الذهبي وذكر من روى عنه. قال: وقرأت بخط أحمد بن شافع أن مصنفاته زادت على خمسين مصنفاً قال أبو سعيد السمعاني: فقيه فاضل سخي النفس بما يملك، كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه إذا خرج ذلك قعد هذا، وإذا خرج هذا قعد الآخر. هكذا ترجمه الذهبي وطول في ترجمته فذكر مشيخته وكراماته إلّا أنه قال: زاهد ـ توفي سنة ٥٥١.

٧٥ ـ نفطويه

إبراهيم بن عرفة أبو عبد الله النحوي المعروف، أخذ العربية عن المبرد وثعلب ومحمد بن الجهم، وخلط نحو الكوفة بنحو البصرة، وتفقه على مذهب داود بن علي الظاهري، ومن تصانيفه كتاب التاريخ، غريب القرآن، المقنع في النحو، المصادر، الوزراء، وغير ذلك وكان مع كونه من أعيان العلماء غير مكترث بإصلاح نفسه، وكان يفرط به الصنان فلا يعرّه، وحضر يوماً مجلس وزير المقتدر حامد بن العباس فتأذى هو وجلساؤه من صنانه فطلب الوزير مرتكاً فبدأ بنفسه وأداره على الجماعة فتمرتكوا وفطنوا مراده فقال نفطويه: لا حاجة لي به فراجعه فأبى فاحتد حامد وقال: عاض كذا من أمه إنما تمرتكنا من أجلك فإنّا تأذينا بصنانك، قم لا أقام الله لك وزناً أخرجوه وأبعدوه ببغداد ـ توفي سنة ٣٢٣ ولقب نفطويه لرمامته وأذيته تشبيهاً بالنفط.

٧٦ ـ إمام الأئمة ابن خزيمة

محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة أبو بكر السلمي النيسابوري المجتهد المطلق البحر العجاج، روى عن خلائق وروى عنه الأئمة البخاري ومسلم

ويحيى بن محمد بن صاعد، وغيرهم ـ قال الحاكم: سمعت أبا عمرو بن إسماعيل يقول: كنت في مجلس ابن خزيمة فاستمد مدة فناولته القلم بيساري إذ كانت يميني قد اسودت من الكتابة فلم يأخذ القلم وأمسك، فقال بعض أصحابه: لو ناولت الشيخ بيمينك فقد امتنع أن يأخذ من يسارك، فأخذت القلم بيميني وناولته إياه فأخذه مني. وقد أطال الحاكم في تاريخ نيسابور ترجمته بما لا مزيد على حسنه ـ قال السبكي في الطبقات: قال أبو أحمد الدارمي: كان له قميص يلبسه وقميص عند الخياط، فإذا فرغ الذي يلبسه وهبه وغدوا إلى الخياط وجاؤوا بالقميص الآخر. وقيل له يوماً: لو حلقت شعرك في الحمام، فقال: لم يثبت عندي أن رسول الله ﷺ دخل حماماً قط ولا حلق شعره، إنما تأخذ شعري جارية بالمقراض. ـ توفي سنة ٣١١.

٧٧ ـ أبو عمر

محمد بن عبد الواحد الزاهد المعروف بغلام ثعلب، أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين، صحب أبا العباس ثعلباً فعرف به، وله تصانيف كثيرة، وكان لسعة روايته وحفظه يكذبه أدباء زمانه في أكثر نقل اللغة ويقولون: لو طار طائر يقول أبو عمر: حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئاً وكان أغلب تصانيفه من حفظه حتى إنه أملى في اللغة ثلاثين ألف ورقة، فلهذا الإكثار نسب إلى الكذب. قال الملك المؤيد صاحب حماة في تاريخه: وكان اشتغاله بالعلوم قد منعه من اكتساب الرزق فلم يزل مضيقاً عليه ـ توفي سنة ٣٤٥.

٧٨ ـ أبو الوقت السجزي

عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق أبو الوقت السجزي الأصل الهروي الصوفي مسند العصر ورحلة الدنيا، روى عن خلائق وروى عنه أمم لا يحصون. حكى عنه والده أنه أخذه ماشياً من هراة إلى بوشنج ليسمعه الحديث، وكان أبوه أيضاً ماشياً فكان إذا أعيا حمله على كتفه وعمره إذ ذاك دون عشر سنين. قال: وكنا نلتقي على أفواه الطرق فلاحين فيقولون: يا شيخ عيسى ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك، فيقول: معاذ الله أن يركب في طلب حديث رسول الله ﷺ قال: فلحسن نية الوالد صارت الوفود ترحل إليّ من الأمصار ـ توفي سنة ٥٥٣.

٧٩ ـ ابن نباتة السعدي

أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي أديب فضله تام وروض علمه زاهر، أصفى عليه حرمانه ولم يسعفه زمانه، ورد على أبي الفضل بن العميد وامتدحه بقصيدته التي أولها:

بـرح اشتيـاق وادكـار	ولـهيب أنفـاس حـرار
ومـدامـع عـبـراتـهـا	تـرفض عن نـوم مـطار
لله قـلبـي مـا يـجـن	من الهمـوم ومـا يـوارِ
وكبـرت عن وصل الصغا	ر ومـا سلوت عن الكبـار

ومنهـا:

لـم يبـق لـي عـيش يلـ	ـذ سوى معانقة العقار
وإذا استهـل فتى العمـيـ	ـد تضاحكت ديم القطار
حـر صـفـت أخـلاقـه	صفـو السبيك من النضـار

فتأخرت صلته فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزدها ابن العميد غير الإهمال، فتوصل إلى أن دخل عليه ومجلسه محتفل بالأعيان فأشار بيده إليـه وقال: أيها الرئيس إني لزمتك لـزوم الظل، وذللت لك ذل النعـل، وأكلت النوى المحـرق انتـظاراً لصلتك، ووالله مـا بي الحرمـان ولكن شماتـة قوم نصحـوني فـاغتششتهم، وصدقوني فأنهمتهم فبأي وجه ألقاهم فإن كان للنجاح علامة فأين هي ومـا هي؟ إن الذي تحسدهم على مـا مدحـوا به كـانوا من طينتـك، وإن الذين هجـوا كانـوا مثلك، فزاحم بمنكبيك أعظمهم سناء وأنورهم شعاعاً. فحـار ابن العميد وشدِه وأطرق سـاعة ثم قال: هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة وعن الإطالة منـا في المعذرة، وإذا ترامينا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه فقال ابن نباتة: هـذه نفثة مصـدور، والغنيّ إذا مطل لئيم فاستشاط ابن العميد وقال: والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله، ولست ولي نعمتي فأحتملك ولا صنيعتي فأغضي عنـك وإن بعض ما أقررته في مسامعي تنقض منه مرة الحليم ويبدد شمل الصبر ـ هـذا وما استقـدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول ولا سألتك مدحي ـ فقـال ابن نباتـة: لما جلست في صدر إيوانك بأبهتك وقلت: لا يخاطبني أحد إلّا بالرياسة دعوتني بلسان الحال وإن

لم تدعني بلسان المقال، فثار ابن العميد مغضباً ودخل حجرته وتعوص المجلس وسمع ابن نباتة ذاهباً وهو يقول: والله إنّ سف التراب والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدب إن كان بائعه مهيناً له ومشتريه مماكساً فيه. فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه علمه التمسه ليعتذر إليه فكأنما غاص بين سمع الأرض وبصرها فكان حسرة في قلب ابن العميد إلى أن مات اهـ ملخصاً من ابن خلكان.

٨٠ ـ الزبيدي

محمد بن يحيى بن علي بن مسلم القرشي الزبيدي الواعظ أبو عبد الله، كان له معرفة بالنحو والأدب قال الذهبي: قال أحمد بن صالح بن شافع: كان له في علم الأصول وعلم العربية حظ وافر، وصنف كتباً في فنون العلم تزيد على مائة تصنيف. قال الحافظ الذهبي: وكان صبوراً على الفقر متعففاً حنفي المذهب. قال أبو الفرج ابن الجوزي حدثني الوزير ابن هبيرة قال: جلست مع الزبيدي من بكرة إلى قريب الظهر وهو يلوك شيئاً في فيه فسألته فقال: لم يكن لي شيء فأخذت نواة أتعلل بها قال ابن السمعاني: كان فينا عجيباً يخضب بالحناء ويركب حماراً مخضوباً ويعظ ويجبه بالحق ـ توفي سنة ٥٥٥.

٨١ ـ أبو النجيب السهروردي

عبد القاهر بن عبد الله بن محمد الشيخ أبو النجيب السهروردي الصوفي الواعظ الفقيه الشافعي. قال الذهبي الزاهد: حفظ كتاب الوسيط في التفسير للواحدي وسمع كتب الحديث المشهورة، وتفقه على أسعد الميمني، وتأدب على الفصيحي، وكتب عنه أبو سعد السمعاني ـ قال ابن النجار: أنبأنا يحيى بن القاسم التكريتي، أنبأنا أبو النجيب قال: كنت أبقى اليوم واليومين لا أستطعم بزاد، وكنت أنزل إلى دجلة وأتقلب في الماء حتى يسكن جوعي حتى دعتني الحاجة إلى أن اتخذت قربة وكنت أستقي بها الماء لأقوام، فلما تعذر ذلك في الشتاء خرجت إلى بعض الأسواق فوجدت رجلاً بين يديه طبرزين وعنده جماعة يدقون فقلت: هل لك أن تستأجرني؟ فقال: أرني يديك فأريته، فقال: هذه يد لا تصلح إلّا للقلم، ثم ناولني قرطاساً فيه ذهب فقلت: ما آخذ إلّا أجرة عملي، وكان رجلاً يقظاً فقال: اصعد وقال لغلامه: ناوله تلك المدقة،

فناولني فدققت معهم فلما عملت ساعة قال: تعال فجئت إليه فناولني الذهب، وقال: هذه أجرتك فأخذته وانصرفت، ثم وقع في قلبي الاشتغال فاشتغلت ثم قال ابن النجار: ثم وعظ على أصحابه بخربة على دجلة يحضره الرجل والرجلان إلى أن اشتهر اسمه وصار له القبول عند الملوك وزارته السلاطين وبنى تلك الخربة رباطاً وبنى إلى جانبها مدرسة، ثم ولي التدريس بالنظامية وعزل عنها بعد سنتين. توفي سنة ٥٤٥.

٨٢ ـ الميداني

أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفضل الميداني صاحب الأمثال تلميذ أبي الحسن الواحدي، واشتمل كتابه في الأمثال على ستة آلاف مثل، ولما وقف عليه الزمخشري حسده فزاد في لفظة الميداني نوناً قبل الميم فصار النميداني وهو بالفارسية الذي لا يعرف شيئاً، فعمد إلى تصنيف الزمخشري وعمل الميم نوناً فصارت الزنخشري وهو بالفارسية بائع زوجته، قال محمد بن المعالي في كتابه ضالة الأديب من الصحاح والتهذيب: سمعت أكابر أصحاب الميداني يقولون لو كان للوفاء والشهامة والفضل صورة لكان الميداني صورتها. ومن نظمه رحمه الله تعالى:

شفة لماها زاد في آلامي ... في رشف ريقتها شفاء سقامي
قد ضمنا جنح الدجى وللثمنا ... صوت كَقَطِّكَ أرؤُسَ الأقلام

توفي سنة ٥٣٩.

٨٣ ـ أبو العلاء الهمذاني

الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد الحافظ أبو العلاء الهمذاني العطار المقرىء الحنبلي المحدث شيخ مدينة همذان، أربى على أهل زمانه في كثرة السماعات وتحصيل الأصول وبرع على حفاظ عصره في حفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير. قال الحافظ عبد القادر الرهاوي: شيخنا الإمام أبو العلاء أشهر من أن يعرف بل تعذر وجود مثله في أعصار كثيرة، سمعت أن من جملة محفوظاته كتاب الجمهرة، رآني يوماً وعلى رأسي قلنسوة مكشوفة فقال: لا تلبسها مكشوفة فإن أول من أظهر لبس القلانس مكشوفة أبو مسلم

الخراساني، ثم شرع في ذكر أبي مسلم فذكر أحواله من أولها إلى آخرها، وجاءته مرة فتوى في أمر عثمان فأخذها وكتب فيها من حفظه ونحن جلوس درجاً طويلاً ذكر فيها وفاته وسنه ومولده وأولاده وما قيل فيه إلى غير ذلك، وكان من أبناء التجار وورث مالاً فأنفقه في طلب العلم حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات كثيرة ماشياً وكان يحمل كتبه على ظهره، وسمعته يقول: كنت أبيت ببغداد في المساجد وآكل خبزاً أدهن، وسمعت شيخنا أبا الفضل الأديب الهمذاني يقول: رأيت الحافظ أبا العلاء في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم على رجليه لأن السراج كان عالياً، ثم نشر الله ذكره في الآفاق وعظم شأنه عند الملوك والعوام حتى إنه كان يمر في همذان فلا يبقى أحد يراه إلّا قام ودعا له حتى الصبيان واليهود - توفي سنة ٥٦٩.

٨٤ - ابن مكتوم

صاحب الدر اللقيط تلميذ أبي حيان أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي الحنفي تاج الدين الإمام النحوي المحدث المؤرخ صاحب التصانيف المفيدة، فمنها تاريخ النحويين وكتاب الحيل وكتاب الدر اللقيط الذي انتقاه من البحر المحيط لأبي حيان، ومنها شرح تصريف ابن الحاجب واختصار تاريخ القفطي وشرح فصيح ثعلب، وله مجاميع حسنة بخطه، ورأيت بخط العلامة نور الدين الأبياري أشياء حسنة يذكر أنه نقلها من خطه. قال ابن مكتوم: ومن خطه نقلت أذكر مرة وقد حمل الحسد على العلم بعض من ابتلاه الله بالجهل ممن كان يجالسني من الشهود على أن تألب عليّ وأعانه على ذلك نويس من أشكاله، فاجتمع عنده نحو الخمسة منهم وكتب هو بخطه رسماً نسبني فيه إلى الوقوع فيما يعلم الله براءتي منه، وقدمه إليهم ليشهدوا فيه عليّ زوراً بما تضمنه، فأراد كل منهم أن يتقدمه غيره إلى ذلك وجبنوا وألقى الله الرعب في قلوبهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة فتفرقوا من فورهم خاملين، وصاروا عن قليل بعد الصحبة الأكيدة متعادين، يذكر كل منهم عن الآخر ما إذا سمعه أحزنه وغمه، ولا يرقب في شتمه واغتيابه إلّا ولا ذمة فالحمد لله الذي كفاني شرهم وجعل محل كيدهم نحرهم، وحتى بلغني ذلك من بعضهم ومن آخرين سواهم فلم أعتب أحداً منهم على ما فعله إذ داء الحسد كما علم لا دواء له فقال:

سوى وجع الحساد داء فإنه   إذا حل في قلب فليس يحول

وقال محمد بن عيسى بن حمدان القرطبي:

كن من أخ في فؤاده دغل أخوف من كاسح يجاهده
برء السقام الخفي أعسر من برء سقام بدت شواهده

اهـ ما أردت نقله من خطه وجدت بخطه مجموعاً، ومنه نقلت ما كتبت هنا وهو مكتوب في ظهور الحجج والوثائق التي تجتمع عند الشهود بحيث إنه صار مقسوماً صفحتين صفحتين بين كل ظاهرين باطنان فيهما الوثيقة، وهذا إما عن فقر عظيم أو عن شح عظيم وأياً ما كان فهو مستحق للذكر في هذا الفصل.

٨٥ ـ ابن خالويه

الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه الهمداني اللغوي المقرىء النحوي أبو عبد الله، أحد العلماء المشهورين والأدباء المصنفين، ومن تصانيفه كتاب الاشتقاق، وكتاب الجمل في النحو، وكتاب القراءات، وكتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن، وكتاب المقصور والممدود، وشرح شعر أبي فراس الحمداني وغير ذلك ـ قرأت بخط العلامة ابن مكتوم أنه كان يلقب بذي النونين لأنه كان يطولهما في خطه، وهما نون الحسين ونون ابن قال: وقد رأيتهما طويلتين في آخر كتاب الجمهرة بخطه وقد طولهما جداً كما ذكر عنه، ووجد على نسخة من إصلاح المنطق بخط أبي الحسن علّي بن عبد الله بن أحمد البزار ما مثاله لما فرغت من هذا الجزء كان أبو سعيد العطاردي حاضراً فقال على لساني:

قرأت ما فيه على الحسين قراءة صدق لم تشب يمين
مستفهم الشكل مرتين فجاء كالمسك على لجين
أو كعذار فوق عارضين حتى إذا ما تم لي بلون
* شرفني الإسناد بالنونين *

قال ابن مكتوم كما نقلته من خطه. وكان ابن خالويه على إمامته في اللغة ضعيفاً في النحو وعلله، ضعيفاً في التصريف، وله في ذلك مع أبي علي الفارسي وتلميذه أبي الفتح بن جنّي حكايات معروفة، ويحكى أن أبا الطيب المتنبي لما أنشد سيف الدولة بن حمدان قوله:

* وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه *

قال له ابن خالويه: إنما يقال شجاه لا أشجاه توهمه فعلاً ماضياً فقال له المتنبي: اسكت فما وصل الأمر إليك وجرى بينه وبين الفارسي كلام فقال ابن خالويه: نتكلم في كتاب سيبويه فقال له الفارسي: لا بل نتكلم في الفصيح ولأبي علي الفارسي في تغليطه كتاب نقض الهاذور قلت: وأنت إذا وقفت على ضعفه في العربية وقفت على سر الحكاية المشهورة عنه وأنها ليست من هضم النفس في شيء وهي إنه قال له رجل: أشتهي أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني؟ فقال: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ما تعلمت ما أقيم به لساني - توفي سنة ٣٧٠.

٨٦ ـ ابن الجصاص

المتمول الصدر الرئيس أبو عبد الله الحسين بن عبد الله الجصاص البغدادي الجوهري التاجر السفار، وقال ابن طولون: لا يباع لنا شيء إلاّ على يد ابن الجصاص، صادره المقتدر في سنة ٣٠٢ فأخذ له من الذهب والجوهر ما قوّم بأربعة آلاف دينار. وقال ابن الجوزي في المنتظم: أخذوا له ما مقداره ستة عشر ألف ألف دينار عيناً وورقاً وخيلاً وقماشاً. ويحكى عنه بله وتغفل، مر به صديق له فقال: كيف أنت؟ فقال ابن الجصاص: الدنيا كلها محمومة وكان قد حم. ونظر مرة في المرآة فقال لصاحبه: ترى لحيتي قد طالت؟ فقال: المرآة في يدك، قال: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. ودخل يوماً على الوزير ابن الفرات فقال: عندنا كلاب يحرموننا نيام، فقال الوزير: لعلهم جراء؟ فقال: بل كل واحد قدي وقدك، وفرغ من الأكل فقال: الحمد لله الذي لا يخلف بأعظم منه. وأراد أن يقبل يوماً رأس الوزير، فقال: إن فيه دهناً فقال: أقبله ولو أن فيه خرأ. ووصف يوماً مصحفاً قديماً فقال: كسرويّ. توفي سنة ٣١٥.

٨٧ ـ الأديب أبو بكر بن بقي

ترجم له صاحب قلائد العقيان فقال: نبيل النثر والنظام، قليل الارتباط والانتظام، ضنأ عليه حرمانه وما صفا له زمانه فصار قعيد صهوات وقاطع فلوات مع توهم لا يطفئه بأماني. ومن نظمه الرقيق المعاني:

عاطيته والليل يسحب ذيله ... صهباء كالمسك العتيق لناشق

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقي
باعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق

وله من قصيدة:

ولكن ما جدوى صبا غير لاقح يسد طريق المزن عن أرضي الفل
أخلاي والآداب تجمع بيننا وبعض طباع لست أقضي على كل
ذوي أملي عند اهتزاز عصوبة وأرخصني الدهر الذي كان بي يعلي

ومنها:

وأمدحهم ما حسبي الله كاذباً فيجزونني بالمنع شكلاً على شكل

٨٨ ـ أبو الحسن

علي بن أحمد بن نوبخت، كان أديباً مجيداً إلّا أنه كان قليل الحظ من الدنيا، لم يزل رقيق الحال ضعيف المقدرة حتى توفي بمصر في شعبان سنة ٤١٦ وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة، فكفنه أبو محمد بن حيران متولي كتب السجلات بمصر.

٨٩ ـ الصولي

أبو بكر بن محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بالصولي، أحد الأدباء الفضلاء المشهورين، روى عن أبي داود السجستاني والمبرد وغيرهم، وروى عنه الدارقطني والمرزباني، وله التآليف المشهورة. وكان أوحد وقته في لعب الشطرنج، وبه يضرب المثل فيه، خرج من بغداد لإضاقة لحقته فتوفي سنة ٣٣٥.

٩٠ ـ ابن ظفر

أبو عبد الله محمد الصقلي، له التصانيف المتعددة منها: سلوات المطاع وخير البشر، وأنباء نجباء الابناء، والينبوع في التفسير، وشرح مقامات الحريري، والحاشية على درة الغواص. ذكره العماد في الخريدة. ولم يزل يكابد الفقر حتى مات. قيل إنه زوج ابنته بحماة من غير كفء للضرورة، فرحل بها الزوج عن حماة وباعها في بعض البلاد. توفي سنة ٥٧٥.

٩١ ــ ابن السكيت

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت الإمام اللغوي النحوي، كان أول الأمر يؤدب أولاد العامة ببغداد بدرب القنطرة، ثم أدّب والد ابن طاهر والمتوكل وجعفر. قال الحسين بن عبد المجيب: سمعت يعقوب بن السكيت في مجلس أبي بكر بن شبة يقول:

ومن النـاس من يحبك حبـاً ظـاهـر الحب ليس بـالتقصير
فـإذا مـا سـألتـه نصف فلس لحق الحب بـاللطيف الخبيـر

قيل: إن المتوكل قتله وذلك أن المتوكل أمره بشتم رجل من قريش فلم يفعل، فأمر القرشي أن ينال منه ففعل فأجابه يعقوب فلما أجابه قال له المتوكل: أمرتك أن تفعل فلم تفعل فلما شتمك فعلت، فأمر بضربه فحمل من عنده صريعاً مقتولاً، ووجه المتوكل إلى بني يعقوب من الغد عشرة آلاف درهم قاله الأبياري في نزهة الألبّاء.

٩٢ ــ الأديب أبو جعفر

ابن المثنى، ترجم له صاحب قلائد العقيان فقال: رافع راية القريض وصاحب آية التصريح والتعريض، أقام شرائعه وأظهر روائعه وجعل عصيه طائعه، وكان أليف غلمان وحليف كفر لا إيمان، ما نطق متشرعاً ولا رتق متورعاً، ولا اعتقد حشراً ولا صدق بعثاً ولا نشراً، وربما تنسك مجوناً وفتكاً، وتمسك باسم التقى وقد هتك هتكاً لا يبالي كيف ذهب ولا بما تمذهب وقد أثبت له ما يرتشفه ريقاً ويلحو الأوان منه شروقاً فمن ذلك قوله:

كيف لا يـزداد قـلبي من جوى الشوق خبالا
وإذا قـلـت عـليّ بهـر النـاس جمـالا
هـو كالغصن وكـالبـد ر قـوامـاً واعتـدالا
إن مـن رام سـلوى عنـه قـد رام محـالا
لست أسلو عن هـواه كـان رشداً أو ضـلالا

ولما اشتهر عند ناصر الدولة ما تقرر وتردد على مسمعه انتهاكه وتكرر أخرجه ونفاه وطمس رسم فسوقه وعفاه.

٩٣ ـ الإمام أبو سهل الصعلوكي

محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون الحنفي نسباً من بني حنيفة العجلي الإمام أبو سهل الصعلوكي، شيخ عصره وإمام الدنيا في الفقه والتفسير والأدب واللغة والنحو والشعر والكلام والتصوف وغير ذلك من أصناف العلوم ـ وعن الصاحب أبي القاسم بن عباد: لم تر خراسان مثله ولا رأى هو مثل نفسه، لقي أبا بكر ابن خزيمة وأبا العباس الماسرخسي الثقفي وغيرهم، ومن الصوفية الرئيس الشبلي وأبا علي الثقفي وغيرهم، وحكي عنه أنه قال: ما مرت بي جمعة إلّا ولي على الشبلي وقفة أو سؤال، وإنه قال: دخل الشبلي على أبي إسحاق المروزي فرآني عنده، فقال: هذا المجنون من أصحابك لا بل من أصحابنا. ـ وعن الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: قلت للأستاذ أبي سهل في كلام جرى بيننا: لم؟ فقال لي: أما علمت أنه من قال لأستاذه لم لم يفلح أبداً ـ قال السبكي في الطبقات: قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: وهب الأستاذ أبو سهل جبته من إنسان في الشتاء وكان يلبس جبة النساء حين يخرج إلى التدريس إذ لم يكن له جبة أخرى، فيقدم الوفد المعروفون من فارس وفيهم من كل نوع إمام من الفقهاء والمتكلمين والنحويين، فأرسل إليه صاحب الجيش أبو الحسن وأمره أن يركب لاستقبالهم فلبس دراعة فوق تلك الجبة التي للنساء وركب فقال صاحب الجيش إنه مستخف بي أمام البلد يركب في جبة النساء ثم ناظرهم فغلبهم أجمعين في كل فن ـ توفي في ذي القعدة سنة ٣٦٩، وصلى عليه ابنه أبو الطيب، ودفن في المجلس الذي كان يدرس فيه.

٩٤ ـ الغزي

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الكلبي الغزّي الشاعر المشهور، ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه، وقال: إنه دخل دمشق ثم بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة ومدح ورثى ثم رحل إلى خراسان وانتشر شعره هناك وأثني عليه اهـ. وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه وقال: إنه جاب البلاد وتغرب وأكثر التنقل والحركات، وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان ولقي ناصر الدين

ابن مكرم بن العلاء وزير كرمان ومدحه بقصيدته البائية التي يقول فيها:

حملنـا من الأيام مـا لا نـطيقـه ... كما حمل العظم الكسير العصائبا

ومنها في قصر الليل:

وليـل رجـونـا أن يـدب عـذاره ... فما اختط حتى صار بالفجر شعائبا

ومن شعـــره:

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة ... باب الدواعي والبـواعث مغلق

خلت الديار فـلا كريم يـرتجى ... منـه النـوال ولا مليـح يعشق

ومن العجـائب أن نراه كـاسداً ... ويخان فيه مع الكساد ويسـرق

ومن شعـــره:

وخز الأسنة والخضـوع لناقص ... أمــران في ذوق النـهي مــران

والـرأي أن تختار فيمـا دونه الـ ... ـمــران وخــز أسنــة المــران

ومن شعره:

من آلة الدست ما عند الوزير سوى ... تحـريك لحيتـه في حـال إيمـاء

فهـو الـوزيـر ولا أزر يشـدّ بــه ... مثـل العروض لـه بحر بـلا مـاء

ولـــه:

وجفـ النـــاس حتى لـو بكينـــا ... تعـــذر مـا تبـــل به الجفـــون

فمـــا تنـــدى لممـــدوح بنـــان ... ولا ينـــدى لمـهجـــوّ جبـيـن

ولد بغزة وتوفي وقد جاوز التسعين ودفن ببلخ سنة ٥٣٤.

ومن نظم الغزي:

قالوا بعـدت ولم تقرب فقلت لهم ... بعدي عن الناس في هذا الزمان حجـا

إذا خروجك لم يخرجك عن كرب ... حسدت من كان جليس البيت ما خرجا

كم عالم لم يلج بالقرع باب غِنًى ... وجاهل قبـل قرع البـاب قد ولجـــا

قعدت في البيت إذ ضيعت منتظراً ... من رحمـة الله بعد الشـدة الفرجـــا

قال المصنف رحمه الله: [تنبيه] قال كاتبه ومصنفه أحمد بن علي الدلجي عافاه الله من الفلاكة: مهما وجدت في ترجمة عالم أو شاعر أنه طاف البلاد وجـال وتنقل فاحكم عليه ما لم يكن محدثاً بأنه في غاية الفلاكة، وهذا أمر يصححه عندي الذوق

والوجدان ولا شك فيه، وأنا أقطع بأن التنقل من لوازم الفلاكة، وما خرج أحد من بلد ويمكنه الإقامة فيها والله أعلم.

٩٥ ـ الفارابي

محمد أبو نصر بن محمد بن أوزلغ بن طرخان من مدينة فاراب من بلاد الترك، كان إماماً فاضلاً وفيلسوفاً كاملاً، برع في الفلسفة وأتقنها وأظهر محاسنها وتفنن في فن الموسيقى واخترع فيه ما لم يسبق إليه، وشرح كتب الأوائل، كان في أول الأمر قاضياً ببلاده فأودع عنده رجل من التجار جملة من كتب أرسطاطاليس فنظر فيها فصادفت منه قبولاً فترك القضاء وأكب عليها بجملته، وتجرد وسافر إلى بغداد وأقام بها وقرأ بها المنطق على يوحنا بن حبلان، وقرأ النحو على أبي بكر بن السراج، ثم سافر إلى مصر ثم رجع إلى دمشق وأقام بها إلى أن مات ـ قال أبو الحسن الآمدي: كان الفارابي متقنعاً باليسير من الرزق، وكان في أول أمره ناطوراً ببستان بدمشق وهو في مثل هذه الحالة ملازم للاشتغال ليله ونهاره، وكان في أكثر لياليه يستضيء على المطالعة بقنديل الحارس، ولم يزل كذلك حتى ظهر فضله وكثرت تلامذته واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علّي بن عبد الله الثعلبي فأكرمه وأوسع عليه فلم يقبل منه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يصرفها في الضروري من عيشه، ومن دعائه: اللهم ألبسني حلل البهاء وكرامات الأنبياء وسعادة الأغنياء وعلوم الحكماء وخشوع الأتقياء. ومن شعره:

بزجاجتين قطعت عمري ... وعليهما عولت أمري
فزجاجة ملئت بحبر ... وزجاجة ملئت بخمري
فبذي أدوّن حكمتي ... وبذي أزيل هموم صدري

وكان يرى الانفراد على شرب الخمر ولا يحب المنادمة عليها ـ توفي رحمه الله في شهور سنة ٣٣٤. نقلت ذلك كله من عيون الأنباء في طبقات الأطباء مما اختاره الحسن بن أحمد بن زفر الإربلي الشافعي من تاريخ ابن أصيبعة.

٩٦ ـ الهروي

صاحب الغريبين أبو عبيد أحمد بن محمد بن محمد بن عبيد العبدي الهروي

القاشاني، من كبار العلماء، أخذ عن أبي منصور الأزهري اللغوي وكتابه المذكور فسر فيه غريب القرآن وغريب الحديث النبوي وسار في الآفاق. قال ابن خلكان: وقيل إنه كان يحب البذلة ويتناول في الخلوة ويعاشر أهل الأدب في مجالس اللذة والطرب عفا الله عنه. وقد أشار الباخرزي في ترجمة بعض أدباء خراسان إلى شيء من ذلك ا هـ. توفي سنة ٤٠١ . وضبط القاشاني بالقاف والشين المنقوطة.

٩٧ ـ ابن فارس اللغوي

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوي، كان إماماً في علوم شتى خصوصاً اللغة فإنه أتقنها وألف كتابه المجمل في اللغة، وهو على اختصاره جمع أشياء كثيرة وله رسائل أنيقة ومسائل في اللغة يعايي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري ذلك الأسلوب في مقامته التي وضع فيها مائة مسألة، وعنه أخذ البديع الهمذاني ومن نظمه:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيماً ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم

وله:

سقى همذان الغيث لست بسائل ... سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفي الدعاء لبلدة ... أفدت بها بستان ما كنت أعلم
نسيت الذي أحسنته غير أنني ... مدين وما في جوف بيتي درهم

وله:

وقالوا كيف حالك قلت خير ... تقضي حاجة وتفوت حاج
إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا ... عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمي هرتي وأنيس نفسي ... دفاتر لي ومعشق في السراج

توفي سنة ٣٩٠.

٩٨ ـ جحظة

أبو الحسين أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة البرمكي، كان فاضلاً صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة وأشعار.

ومن شعره:

فقلت لهـا بخلت عليّ يقـظي   فجـودي في المنـام لمستهـام
فقـالت لي وصرت تنـام أيضـاً   وتـطمـع أن أزورك في المنـام

ولـه:

أصبحت بين معاشر هجروا الندى   وتقبلوا الأخـلاق من أسـلافهم
قـوم أحـاول نيلهم فكـأنمـا   حاولت نتف الشعر من آنـافهم
هـات اسقنيهـا بـالكبيـر وغنني   ذهب الذين يعاش في أكنافهم

ولـه:

وقـائلة لي كيف حـالـك بعـدنـا   أفي ثوب يسر أنت أم ثوب معسر
فقلت لهـا لا تسـأليني فـإنني   أروح وأغـدو في حـرام مقتـر

توفي سنة ٣٢٦.

٩٩ ــ ابن الخياط

الشاعر المفطور صاحب الديوان المشهور أبو عبد الله أحمد بن محمـد الثعلبي المعروف بابن الخياط، طاف البلاد وامتدح الناس ودخل بلاد العجم، دخل مرة إلى حلب وهو رقيق الحال لا يقدر على شيء فكتب إلى ابن حبوس الشاعر المشهور:

لم يبق عنـدي مـا يبـاع بحبـة   وكفاك مني منظري عن مخبـري
الا بقيـة مـاء وجـه صنتهـا   من أن تبـاع وأين أين المشتـري

وقصيدته البائية كفاه بها تعريفاً بفضله وهي التي أولها.

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه

توفي سنة ٥١٧.

١٠٠ ــ الحافظ أبو الفضل

محمد بن طاهر المقدسي ذكره الإمام العلامة الحافظ عبد الكريم بن السمعاني في ذيله على تاريخ بغداد، وقال في أثناء ترجمته: كان بحراً في الحديث، وقال أيضاً في أثنـاء الترجمـة رداً على الطاعنين فيـه: وفضل محمـد بن طاهـر ومعرفتـه بعلم الحديث وتصانيفه وتبحره لا ينكر، ومن أنكر من مشايخنا عليه فإنما أنكر سيرته ولعله

تاب ـ ونقل عن أبي الحسن بن أبي طالب الكرخي الفقيه أنه قال عنه: ما كان على وجه الأرض له نظير، ثم نقل عنه أنه صنف كتاباً في جواز النظر إلى المرد وأنه قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها، فقيل له: تصلي عليها؟ فقال: صلى الله عليها وعلى كل مليح، ونُقل أيضاً عنه حكاية خرج منها أنه كان في غاية الفقر، وملخصها أن الحال أعوزته وهو يكتب الحديث ولم يبق معه غير درهم وهو محتاج إلى كاغد وإلى خبز فردده بين الأمرين يوماً وثانيه فلما كان اليوم الثالث قال: لم يبق إلّا الخبز فإني إن اشتريت به كاغداً لا أقدر على النسخ لأجل الجوع فوضعه في فيه وخرج ليشتري به فاتفق أنه ابتلعه فأخذه الضحك فلقيه أبو طاهر الصانع فسأله عن سبب ضحكه فكتمه إياه، فألح عليه فامتنع، فحلف عليه بالطلاق ليخبرنه الخبر فأخبره بالحال فحمله إلى البيت وتسبب له في دراهم كثيرة اهـ ملخصاً.

١٠١ ـ أبو العلاء محمد بن محمد بن صالح بن الهبارية

كان إماماً في علوم الأدب، بحراً في النظم والنثر، سلس الشعر مع قوة المعنى وصحة المبنى، ومن نظمه يمدح أمين الدولة بن التلميذ وكان نصرانياً وكان محمد بن الهبارية شريفاً عباسياً:

يا بني التلميذ لو وافيتكم	لم تكن نفسي بأهلي شغفه
إنما طلقت كرمان بكم	إنكم لي عوض ما أشرفه
برئيس الحكماء المرتجى	انه لي جنة مخترقه
شمس مجد لا تراها أبداً	عن سموات العلى منكسفه
جل أن يدرك وصف مجده	أنه أكثر من كل صفه
لو تمكنت لكانت جملتي	في زوايا داره معتكفه
فبه تفتخر الدنيا التي	أصبحت من غيره مستنكفه
إنما أحبو بني التلميذ بالـ	ـمدح إذ كلهم ذو معرفه
فابن يحيى منهم محيي الندا	زاد في الجود على من خلفه
حقق الكنية من والده	كرماً فيه وطبعاً ألفه
وهم من صاعد عن سادة	بأبي مجدهم ما أنطفه
لا تقسهم بالورى كلهم	فتقس لب السرى بالجعدفه

فابن إبراهيم لاهوت العلى		من دعـاه بشراً مـا أنصفه
يا رئيس الحكماء استجلها		من بنات الفكر بكراً مترفه
إنني أنفدت نجلي قاصداً		أشتكي دهراً قليل النصفه

قلت: وقوله فابن يحيي منهم يحيي الندا الخ أراد به أبو الفرج يحيي بن التلميذ، وهو يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ الملقب معتمد الملك وله فيه مدائح غيرها فمنها قوله:

يحيى بن صاعد بن يحيى لم يزل		للمكـرمـات إلى خيالي خـالبـا
مـا زال يعربنـي عـلاه ولم أزل		بعـلاه مـا بين البـريـة خـاطبـا

ومنهـا:

لا تحوجن أخاك لا بل عبدك الـ		ـقن ابن عبـدك أن يـروم أجـانبـا
فـلأنت أولى بي لمـا عـودتني		عمن غدا لي في الأصول مناسبا
ثقـة الخلافـة سيد الحكمـاء معـ		ـتمـد الملوك الفيلسوف الكـاتبـا
مازح وطايب ما استطعت فما الفتى		ممن يكـون ممـازحـاً ومـطايبـا
وفـداك من نوب الـزمان وصـرفه		قوم يـزيـدون الـزمـان معـايبـا

وسبب ذلك أنه أتاه إلى أصفهان فحصل له مالاً جزيلاً من كبارها.

١٠٢ ـ ابن المنيـر

أبو الحسين أحمد بن المنير الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان الشاعر المشهور، ومهر في اللغة والأدب وقال الشعر فأجاد، قدم دمشق وسكنها وكان كثيـر الهجاء بذيء اللسان، ولما كثر منه ذلك سجنه نوري بن أتابك صاحب دمشق وعزم على قطع لسانه فشفع فيه ونفي. وله من جملة قصيدة:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله		في منـزل فالـرأي أن يتحـولا
كالبدر لما أن تضاءل جد في		طلب الكمـال فحـازه متنقـلا

ومنهـا:

لله علمي بـالـزمـان وأهـله		ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا
طبعوا على لؤم الطباع فخيرهم		إن قلت قال وإن سكت تقولا

توفي في جمادى الآخرة سنة ٥٤٨.

١٠٣ ـ النفيس

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم المنعوت بالنفيس، كان من العلماء والأدباء وله ديوان شعر جاد فيه ـ ذكره العماد في الخريدة فقال: فقيه مالكي المذهب، له يد في علوم الأوائل والأدب ومن شعره:

يسر بالعيد أقوام لهم سعة … من الثراء وأما المقترون فلا
هل سرني وثيابي فيه قوم سبا … أم راقني وعلى رأسي به ابن جلا

توفي سنة ٦٠٣ بقوص بعد أن جاب البلاد واستجدى الناس بشعره.

١٠٤ ـ أبو الصلت

أمية بن عبد العزيز الأندلسي كان أديباً ماهراً في علوم الأوائل، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه ومن نظمه:

وقائلة ما بال مثلك خاملا … أأنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبي إلى القوم أنني … لما لم يحوزوه من الفضل حائز.

توفي سنة ٥٣٨.

١٠٥ ـ مبرمان

النحوي شارح كتاب سيبويه وإن كان لم يتمه، هو أبو بكر بن محمد بن علي العسكري، أخذ عن المبرد وتصدر بالأهواز ـ قال الذهبي: كان وضيع النفس يأخذ من الطلبة ويطلب حمال قفص فيحمله إلى داره من غير عجز وربما انبسط فبال على الحمال، ويتنقل بالتمر فيحذف بنواه الناس ـ توفي سنة ٣٢٧ ولقبه المبرد مبرمان لكثرة سؤاله له ومن مصنفاته: كتاب علل النحو، وكتاب التلقين، وكتاب شرح شواهد سيبويه، وكتاب شرح سيبويه. وكان إذا ركب في طبلية الحمال وبال عليه اعتذر له بقوله: احسب أنك حملت رأس غنم.

١٠٦ ـ أبو الحسن الربعي

علي بن عيسى بن الفرج بن صالح أبو الحسن الربعي النحوي الزيدي، أحد

أئمة النحو، كان دقيق النظر في النحو جيد الفهم والقياس، لازم أبا علي الفارسي عشرين سنة فقال له أبو علي: ما بقيت تحتاج إليّ ولو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أنحى منك. ومن تصانيفه: شرح الإيضاح للفارسي، وكتاب شرح مختصر الجرمي، وكتاب البديع في النحو، وكتاب المبني على فعال، وكتاب التنبيه على خطأ ابن جني في تفسير شرح المتنبي، وكتاب شرح سيبويه. وكان يرمى بالجنون، مر يوماً بسكران ملقى على قارعة الطريق فحل سراويله وجلس على أنفه وجعل يضرط وينشد:

تمتع من شميم عرار نجد | فما بعد العشية من عرار

ونازعه يوماً شخص في مسألة فعمد إلى شرحه لكتاب سيبويه فوضعه في إجانة وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم الحيطان ويقول: جزاء من يجعل أولاد البغالين نحاة. وسأل من تلامذته أن يركبوا معه إلى كلواذ فظنوا حاجة عرضت فركبوا معه وعرضوا عليه الركوب فأبى، فلما صار بحذائهم أوقفهم على سلم وأخذ كساءً وعصا وما زال يعدو على كلب هناك وهو يهرب منه تارة ويثب عليه أخرى حتى أعياه ذلك فعاونوه عليه فأمسكه وعضه عضاً شديداً وقال: هذا عضني منذ أيام فأردت أخالف فيه قول الشاعر:

شاتمني عبد بني مسمع | فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له | ومن يعض الكلب إن عضا

توفي سنة ٤٣٠.

١٠٧ ـ القالي

أبو الحسن علي بن أحمد بن علي القالي، كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكان كلفاً بها، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها فاشتراها الشريف المرتضى فوجد فيها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن القالي المذكور:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها | فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها | ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية | صغار عليهم تستهل جفوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة | مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك | ودائع من رب بهن ضنين

١٠٨ ـ البيهقي

أحمد بن الحسين بن عليّ بن عبد الله بن موسى البيهقي الخسروجردي الإمام أبو بكر، وخسروجرد بضم الخاء المعجمة وسكون السين المهملة وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء وفي آخره دال، هو الإمام الجليل الحافظ الفقيه الأصولي القائم بنصرة مذهب الشافعي صاحب التصنيفات، له كتاب السنن الكبير، وكتاب المبسوط في نصوص الشافعي، وكتاب دلائل النبوة، وكتاب شعب الإيمان، وكتاب معرفة السنن والآثار ـ قال تقي الدين السبكي: معناه معرفة الشافعي بالسنن والآثار وغير ذلك. قال تاج الدين السبكي في الطبقات: كان على سيرة العلماء قانعاً من الدنيا باليسير متجملاً في زهده وورعه ـ توفي في نيسابور في جمادى الأولى سنة ٤٥٨.

١٠٩ ـ أبو سعيد الإصطخري

الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى الإمام الجليل أبو سعيد الإصطخري القاضي قال الخطيب: أحد الأئمة المذكورين من شيوخ الفقهاء الشافعيين كان ورعاً زاهداً متقللاً. قال الطبري: وحكي عن الداركي أنه قال: ما كان أبو إسحاق المروزي يفتي بحضرة الإصطخري. قال أبو إسحاق المروزي: سئل يوماً أبو سعيد عن المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً هل تجب لها النفقة؟ فقال: نعم، فقيل ليس هذا من مذهب الشافعي فلم يصدق فأراه كتابه فلم يرجع، وقال: إن لم يكن مذهبه وإلّا فهو مذهب علّي وابن عباس. قال أبو إسحاق: فحضر يوماً مجلس النظر مع أبي العباس بن شريح فتناظرا فجرى بينهما كلام فقال له أبو العباس: أنت سئلت عن مسألة فأخطأت فيها، وأنت رجل كثرة أكل الباقلاء قد ذهبت بدماغك، فقال له أبو سعيد: وأنت كثرة أكل الخل والمري قد ذهب بدينك ـ قال الطبري: وكان من الورع والزهد بمكان لم يصله سواه يقال إنه كان قميصه وعمامته وسراويله وطيلسانه من شقة واحدة، وكانت فيه حدة وله تصانيف كثيرة فمنها: كتاب أدب القضاء ليس لأحد مثله. ومن مفردات مسائله قوله: إنه ينتقض الوضوء بمس الأمرد ـ توفي ببغداد في ثاني الجمادين سنة ٣٢٨ نقلته من طبقات السبكي.

١١٠ ـ السيد ركن الدين

الحسن بن محمد بن شرفشاه العلوي الحسيني الأسترابادي تلميذ النصير الطوسي أبو الفضائل له عدة مصنفات منها: شرح أصول ابن الحاجب، وشرح مقدمته في النحو، وشرح الحاوي شرحين، وكان له إدرارات وجوامك كل يوم ستون درهماً، كان يعيد دروس النصير الطوسي في الحكمة. قال الشيخ شهاب الحسباني: ومن خطه نقلت وكان في دينه رقة ـ توفي سنة ٧١٨ بالموصل.

١١١ ـ أبو هفان

عبد الله بن أحمد بن حرب بن خالد أبو هفان النحوي اللغوي، روى عن الأصمعي وصنف كتباً منها: كتاب صناعة الشعر كبير، وكتاب أخبار الشعراء، قرأت بخط الحسباني أنه كان مقتراً عليه ضيق الحال، وأن دعبلاً الخزاعي أضافه وسقاه نبيذاً حلواً ووصى الجواري أن لا يدلوه على الخلاء ثم تركه ونام، فقال لبعض الجواري: أين الخلاء؟ فقالت لها الأخرى ما يقول سيدي؟ فقالت: يقول غني:

خلا من آل عاتكة الديار فمثوى أهلها منهم قفار

فغنت هذه وصرخت هذه وشربوا أقداحاً فقال: أحسنتم غير أنكم لم تأتوا على ما في نفسي، فلما أجهده الأمر قال: لعل الجارية بغدادية لا تعرف الخلاء، فقال لها أين المستراح؟ ففعلوا كفعلهم الأول، فقال: لعلهن حجازيات أين الحش؟ ففعلوا كذلك، ثم قال: لعلهن كوفيات أين الكنيف؟ فأعادوا ذلك فحل سراويله وذرق في وجوههن فانتبه دعبل وأمر له بثياب وهي حكاية طويلة. قال سعيد بن حميد لأبي هفان: لئن ضرطت عليك ضرطة لأبلغنك إلى فيد، فقال له أبو هفان: أسعدني بأخرى تبلغني إلى مكة فإني ما حججت بعد ـ مات سنة ٢٥٥.

١١٢ ـ الرياشي

العباس بن الفرج الرياشي مولاهم قال المبرد: سمعت المازني يقول: قرأ الرياشي عليّ كتاب سيبويه فاستفدت منه أكثر مما استفاد مني يعني إنه أفاده لغته

وشعره، وأفاده هو النحو قال المبرد: وكان الرياشي والله أحمق، ومن حمقه أنه إذا كان صائماً لا يبلع ريقه.

١١٣ ـ ابن بابشاذ

النحوي البصري العلامة طاهر بن أحمد بن بابشاذ أبو الحسن، كان يأكل يوماً مع بعض أصحابه طعاماً فجاء قط فرمى إليه بشيء فأخذه وذهب به وعاد سريعاً ثم فعل ذلك مرة بعد أخرى، فعلم أن له سبباً فاتبعوه فإذا بقط آخر أعمى في سطح، فقال الشيخ: هذا حيوان بهيم قد ساق الله له رزقه أفلا يرزقني وأنا عبده، فترك علائقه الدنيوية ولزم غرفة في جامع عمرو بن العاص وأقبل على العلم وجمع تعليقة في النحو قريباً من خمسة عشر مجلداً وأصحابه كابن برّي وغيره ينقلون منها ويسمّونها تعليقة الغرفة، وكان له معلوم وراتب على قراءته للكتب التي يكتبونها عن السلطان وإصلاحها تعرض عليه قبل أن تحمل إلى الجهة التي عينت لها ـ سقط من سطح جامع عمرو بن العاص فمات من وقته سنة ٤٦٩.

١١٤ ـ عبد الرحمن

ابن محمد بن عبد الله بضم العين مصغراً ابن أبي سعيد كمال الدين أبو البركات الأنباري النحوي صاحب التصانيف المفيدة، منها: هداية الذاهب في معرفة المذاهب، وبداية الهداية في الأصول، والداعي إلى الإسلام في الكلام، والنور اللائح في اعتقاد السلف الصالح، وفي الأدبيات ما يزيد على خمسين مصنفاً. انتهت الرحلة إليه بالعراق من سائر الأقطار ـ قال الموفق عبد اللطيف: لم نر في العباد والمنقطعين أقوى طريقة ولا أصدق منه في أسلوبه، جدّ محض لا يعتريه تصنع ولا يعرف السرور ولا أحوال العالم، كان له من أبيه دار يسكنها ودار وحانوت مقدار أجرتهما نصف دينار في الشهر يقنع به ويشتري منه ورقاً ولا يوقد عليه ضوءاً وتحته حصير قصب وعليه ثوب وعمامة قطن يلبسهما عند المضي إلى الجمعة، ويلبس في بيته ثوباً خلقاً، ولا يخرج منه إلّا يوم الجمعة، وسيّر إليه المستضيء خمسمائة دينار فردها فقال له: اجعلها لولدك، فقال: إن كنت خلقته ارزقه ـ توفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة ٤٧٧، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.

١١٥ ـ الواحدي

علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي، كان مفسراً نحوياً لغوياً أصولياً، أنفق في صباه مالاً على تحصيل العلم، وكان من أولاد التجار، وذكر في مقدمة تفسيره الذي سماه البسيط أشياخه ومن قرأ عليه. قيل للغزالي لما صنف كتبه: ما عملت شيئاً أخذت الفقه من إمام الحرمين من نهايته وأسماء الكتب من الواحدي، وكان الغزالي يقول: من أراد أن يسمع التفسير كأنه من فم رسول الله ﷺ فعليه بتفسير الواحدي. وله كتاب نفي التحريف عن القرآن الشريف وغيره، وكان عديم النظير إلّا أنه كان يبسط لسانه في العلماء ـ توفي سنة ٤٦٨.

١١٦ ـ ابن برهان

عبد الواحد بن علي بن عمر بن إسحاق بن إبراهيم أبو القاسم بن برهان النحوي الأسدي العكبري صاحب العربية والنحو والتاريخ وأيام العرب، قرأ على عبد السلام البصري وأبي الحسن التميمي، كان فيه شراسة على من يقرأ عليه، وكان الطلبة يمشون حوله يميناً وشمالاً وهو يلقي عليهم المسائل، وتكبر على أولاد الرؤساء وكان يتعصب لمذهب أبي حنيفة، وكان يحب الباذنجان ويقول في تفضيله: الناس يأكلونه ثمانية أشهر في العام وهم أصحاء، ولو أكلوا الرمان أربعة أشهر فلجوا. قرأت بخط الشيخ شهاب الدين الحسباني أنه كان على إمامته وديانته يحب مشاهدة المليح ويقبل أولاد الأمراء والأتراك وأرباب النعم بمحضر من آبائهم ولا ينكرون عليه ذلك لعلمهم بدينه وورعه. توفي سنة ٤٤٦. قال: ولم يكن يلبس سراويل ولا على رأسه غطاء.

١١٧ ـ الحريري

صاحب المقامات القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبو محمد البصري الحرامي الحريري، أحد الأئمة في النظم والنثر. وعمل بعد الحريري مقامات كثيرة: مقامات ابن الصيقل، مقامات أبي العباس يحيى النصراني المعروفة بالمسيحية، مقامات أبي الهيجاء شهنيروز. شرح المقامات ابن ظفر شرحين كبير وصغير والمطرزي والشريشي وغير واحد قيل: وكانت مسوداتها نحو حمل جمل. سمع

الحريري من أبي تمام محمد بن الحسن بن موسى المقري وأبي القاسم بن الفضل المقصافي الأديب، وقرأ النحو على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ إمام الحرمين في العربية، وتفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، كان الحريري غنياً له ثماني عشرة ألف نخلة كل نخلة في سنة بدينار وقيل إنه كان قذراً في نفسه وشكله ولبسه قصيراً ذميماً بخيلاً مولعاً بنتف ذقنه. وحكى بعض أهل الأدب أن الحريري لما قدم بغداد وكان الناس يهتفون بفضائله ويتطلعون إلى لقائه فحضر إليه ابن حكينا المعروف بالبرغوث الشاعر فلم يجده على ما كان في ظنه فنظم أبياتاً:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان وقد ألجمه في العراق بالخرس

وقيل إن الحريري حضر مجلساً فذكروا فيه قول بعض الأدباء إن لم يكن لنا طمع في درك درّك فاعفنا من شرك شرّك استحسنها الحاضرون، فعمل الحريري في الحال إن لم تدننا من مبارك مبارّك فأعدنا عن معارك معارّك، وبلغه أن صاحباً له يسمى أبا زيد المطهر بن سلام البصري الذي عمل المقامات على لسانه شرب مسكراً فكتب إليه: أبا زيد اعلم أن من شرب الطلا تدنس، فافهم سر قولي المهذب، ومن قبل سميت المطهر والفتى يصدق بالأفعال تسمية الأب فلا تحسها كي ما تكون مطهراً وإلّا فغير ذلك الاسم واشرب.

١١٨ ــ أبو العباس

أحمد بن الحسين النحوي الموصلي المعروف بابن الخباز، كان من علماء النحو وفرسانه، أديباً لطيف الروح عذب العبارة حسن النظر كثير الاطلاع والحفظ. قال ابن هشام مصنف المغني فيما وجدته بخطه: وكأنه كان غير مصنف من أهل زمانه، وقد وقفت له على عدة تآليف يشكو فيها حاله، فمن ذلك قوله في خطبة كتابه الذي سماه الفريدة في شرح القصيدة وهي قصيدة أبي عثمان سعيد بن المناس الشهير بابن الدهان: فإن أصبت فمن فضل الله الرحيم وإن أخطأت فمن الشيطان الرجيم، ومن علم حقيقة حالي عذرني إذا قصرت بأن عندي من الهموم ما يزغ الجنان عن حفظه، ويكف اللسان عن لفظه، ولو أن ما بي بالجبال لهدها، وبالنار اطفأها، وبالماء لم يجر، وبالناس لم يحيوا، وبالدهر لم يكن، وبالشمس لم تطلع، وبالنجم لم يسر،

وأنا أسأل الله العظيم أن يكفيني شر شكواي وأن لا يزيدني على بلواي، فإني كلما أردت خفض العيش صار مرفوعاً وعاد بالحزن سب المسرة مقطوعاً والله المستعان في كل حال ومنه المبدأ وإليه المآل. نقلت ذلك كله من خط العلامة جمال الدين بن هشام مصنف المغني. وقال المصنف رحمه الله: نقلت من خط الشيخ نور الدين الأبياري: الصعاليك من العرب عروة بن الورد العبسي، وتأبط شراً الفهمي، والشنفرى الأزدي أزد شنوءة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، والأسعر بن مالك الأودي، وعمرو بن برّاق الهمداني، وشراحيل بن الأشهب الجعفي، وأبو خراش الهذلي، وعمرو ذو الكلب الهذلي، ونقلت من خطه أيضاً قال الذهبي: كان في الأشعر دعابة ومزح كثير، وكان يقنع باليسير، وكان له بعض قرية من وقف جدّهم الأمير جلال بن أبي بردة ويقال إنه بقي إلى سنة ٣٣٠.

الفصل الحادي عشر

في مباحث تتعلق بالفصل قبله، ومن المباحث النكبات الحاصلة للأعيان لا يحملنك قلة من عددنا في الفصل قبله من العلماء الذين تقلصت عنهم الدنيا على توهم انبساط الدنيا على غالب العلماء أو معظمهم واعتقاد تمتعهم بها فإن لانحصارهم في العدد المذكور في الفصل قبله أسباباً منها: أنّا لم نذكر من العلماء إلّا من زويت عنه الدنيا ولم يترجم بزهد وشدة تقشف وردّ للدنيا واعراض عنها، وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل الشيخ:

١١٩ ـ محيي الدين النواوي

يحيى بن شرف بن مرّي مع أنه كان لا يأكل إلّا أكلة بعد عشاء الأخيرة، ولا يشرب إلّا شربة واحدة عند السحر، ولا يشرب الماء المبرد، ولا يأكل من فاكهة دمشق معللاً ذلك بأن الأوقاف والأملاك للمحاجير فيها كثيرة والتصرف لهم لا يجوز إلّا على وجه الغبطة والمعاملة فيها على وجه المساقاة وفيها خلاف والناس لا يفعلونها إلّا على جزء من ألف جزء للمالك، وكان لا يدخل الحمام، ولم يتزوج ولم يشرب الفقاع ومأكله كعك يابس وتين حوران يأتيه به أبوه، وملبسه الثياب المرقعة ـ توفي سنة ٦٧٦.

١٢٠ ـ ومثل السهروردي

صاحب عوارف المعارف إمام وقته لساناً وحالاً وعلماً وعملاً مع أنه عمي في آخر عمره وأقعد ومات ولم يخلف كفناً ـ توفي سنة ٦٣٢.

١٢١ ـ والحسن بن العباس الرسخي

الأصفهاني مع أنه كان يسمع عليه الحديث وهو في رثاثة من الملبس والمفرش

بحيث لا يساوي طائلاً كما ذكره ابن كثير في طبقاته ـ توفي سنة ٥٦١.

١٢٢ ـ ومثل إبراهيم بن إسحاق

ابن بشير أبو إسحاق الخوي أحد الأئمة في الفقه والحديث وغير ذلك، إمام مصنف عالم يقاس بالإمام أحمد شيخ الدارقطني، كان يقول: الرجل الذي يدخل غمه على نفسه ولا يدخله على عياله وقد كان بي شقيقة منذ خمس وأربعين سنة ما أخبرت بها أحداً قط، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحداً. أنفق على نفسه وعياله في بعض الرمضانات درهماً وأربعة دوانيق ونصفاً وبعث إليه المعتضد بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها فرجع الرسول يقول له: قال لك أمير المؤمنين فرقها على جيرانك، فقال: هذا شيء لا نجمعه ولا نفرقه إما أن يتركنا وإما أن نتحول من بلده ـ توفي لتسع بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٤ وكغيرهم من العلماء والأولياء.

ومنها أنّا لم نذكر أيضاً من لم ينص على فقره صريحاً أو بلازم واضح، وكثيراً ما يقول المترجمون كان متقللاً ويقتصرون عليه فلا أذكره مع الظن بأنه من المستحقين للذكر في الفصل قبله فمن ذلك.

(**ابن الأنباري**) عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، صاحب أسرار العربية والمصنفات التي تزيد على مائة تصنيف فإنهم قالوا في ترجمته انقطع للعبادة والعلم صابراً على خشن العيش والتقلل منه ـ توفي سنة ٣٧٧.

ومنه: (**عزيزي بن عبد الملك الشافعي المعروف بشيدله**) صاحب مصارع العشاق فإنهم قالوا في ترجمته كان زاهداً متقللاً من الدنيا ـ توفي سنة ٤٩٤ .

ومنه: (**المبارك**) بن محمد بن عبد الله السوادي الواسطي نزيل نيسابور أحد أركان الفقهاء المكثرين الحافظين للمذهب القوي المناظرة، قالوا في ترجمته: كان متجملاً قانعاً باليسير ومع ذلك ما ذكرته وغيرهم ممن لم يتضح لي فقره إلّا بلازم ضعيف أو عبارة مجمجمة وسقط بذلك طائفة كبيرة ـ

ومنها أنّا لم نذكر كل من شد أطرافاً من العلم كيف ما كان وقعدت عنه الدنيا، بل إنما ذكرنا الأعيان وسقط لذلك طائفة كبيرة ـ ومنها أني لم أذكر إلّا من صرح بفقره أو بلازم فقره الجلّي، أما من لم يصرح بفقره ولا بغناه ولا يسند إليه تولية منصب ولا

تدريس بل ترجموه بالعلم وسيبوه فلم أذكره وفيه بحث لأنه لا يلزم من عدم ذكر الفقر عدم الفقر، ولا يقال هو معارض بمثله لأنه لا يلزم من عدم ذكر الغنى عدم الغنى لأنّا نقول لكن الترجيح معنا لما أن المؤرخين بصدد ذكر كمالات المترجم حتى أنهم يذكرون تداريس لا يعبأ بها في بعض التراجم، فلو كان لذكر وتوفر الداعية على نقله فلما لم يذكر علم أنه لم يقع وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل:

(**ابن الحاجب**) أبي عمرو عثمان المالكي المتوفى سنة ٦٤٦. ومثل:

(**ابن عصفور**) علي بن مؤمن بن محمد العلامة الإشبيلي المتوفى سنة ٦٦٤. ومثل:

(**أبي محمد عبد الله بن الخشاب**) وغيرهم من العلماء الأئمة. ومثل:

(**الزمخشري**) ومن نظمه:

خليليَّ هل تجدي عليّ فضائلي ... إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص ينال منازلا ... أخو الفضل محقوق بتلك المنازل
كفى حزناً أن يرغم العلم والحجا ... بضد زياد طيشه غير عاقل
ومن لي بحق بعد ما وقرت على ... أراذلها الدنيا حقوق الأماثل
كذا الدهر كم شوهاء في الحلي جيدها ... وكم جيد حسناء المقلد عاطل
ومما شجاني أن غر مناقبي ... يغني بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي ... وسارت مسير النيرات رسائلي
وكم من آمال لي وكم من مصنف ... أصاب بها ذهني محز المفاصل
غني من الآداب لكنني إذا ... نظرت فما في الكف غير الأنامل
فيا ليتني أصبحت مستغنياً ولم ... أكن في خوارزم رئيس الأفاضل
ويا ليتني مرض صديقي ومسخط ... عدوّي وأني في فهاهة باقل
فلست بفضلي بالغاً ولو انني ... كقس أياد أو كسحبان وائل
وما حق مثلي أن يكون مضيقاً ... وقد عظمت عند الوزير وسائلي
فلا تجعلوني مثل همزة واصل ... فيسقطني حذف ولا راء واصل
فكل امرىء أمثاله عدد الحصا ... وهات نظيري في جميع المحافل
فوقع إلى هذا الزمان فإنه ... غلامك يجعلني كبعض الأراذل

(ومنها) أنّا لم نذكر من ترجم بفقر ثم بغنى زائد تغليباً لجانب الغنى المتأخر، وسقط بذلك أيضاً طائفة. (ومنها) أن الكتب والزمان لم يساعدا على استيفاء هذا المقام وإعطائه حقه، فلعل ما لم نره أكثر مما وقفنا عليه. (ومنها) أنّا لم نذكر إلّا ما وقفنا عليه في كتاب معتمد وضع للتراجم، أما الكتب الأدبية ففيها أشياء كثيرة لم أذكرها. (منها) ما في العقد لابن عبد ربه وشرح الزيدونية لابن نباتة أن أبا الأسود الدؤلي النحوي وسهل بن هارون الملقب بزرجمهر الإسلام والكندي الإمام في العلوم العقلية الملقب بفيلسوف العرب كانوا في غاية البخل، وفي عدم ذكر أبي الأسود الدؤلي معنى آخر هو جلالته وصيانته عن نسبة البخل إليه. (ومنها) أني لم أذكر في الفصل قبله في النكبات العارضة للأعيان فقلما خلا عالم أو نبيل من نكبة، وأنا أذكر هنا طرفاً لائقاً بمقصودي من ذوي النكبات.

١٢٣ ــ مالك بن أنس

ابن أبي عامر بن الحارث بن غيمان بالغين المعجمة أبو عبدالله الإمام المدني أحد أئمة الإسلام، سعي به إلى جعفر بن سليمان بن عليّ ابن عم أبي جعفر المنصور فدعا به وجرّده وضربه سبعين سوطاً ومدت يداه حتى انخلع كتفاه، وسبب ضربه أنهم سألوه عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقالوا له: إن في أعناقنا مبايعة أبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، فأسرع الناس إلى محمد فسعى به فضرب لذلك ثم لم يزل بعده في علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حلياً تحلى بها ـ توفي سنة ١٧٤.

١٢٤ ــ أبو حنيفة

النعمان بن ثابت الفقيه الكوفي أحد الأئمة المتبوعين، كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فأراده لقضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط، وبقي على الامتناع وسجنه فتوفي بالسجن في أحد القولين سنة ١٥٠ ببغداد.

١٢٥ ـ الإمام أحمد بن حنبل

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي، استحوذ على المأمون جماعة من المعتزلة وقوّلوه بخلق القرآن، فعنّ له بطرسوس أن يكتب إلى نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، فكان ذلك أول الفتنة وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة ٢١٨، فلما وصل الكتاب استدعى جماعة من العلماء فامتنعوا فهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين، واستمر على الامتناع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الحيدسابوري فحملا على بعير متعادلين مقيدين إلى الخليفة عن أمره بذلك، ثم جاء الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وأن الأمر شديد، فردّ إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى، ومات محمد بن نوح في الطريق، وأودع الإمام أحمد السجن ببغداد نحواً من ثمانية وعشرين شهراً، ثم أحضره المعتصم في قيوده وأجلسه فجلس ودعاه إلى القول بخلق القرآن فامتنع، وقال: فما قال ذلك ابن عمك رسول الله ﷺ، دعا إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن القرآن علم الله، ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به، وناظره أحمد ابن أبي داود وغيره وأنكروا الآثار التي أوردها وقالوا للمعتصم: هذا أكفرك وأكفرنا، وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فعند ذلك حمي واشتد غضبه فأخذ وجيء بالعقابيين والسياط وضربه ضرباً مبرحاً شديداً حتى أغمي عليه وغاب عقله، وأمر بإطلاقه إلى أهله فنقل وهو لا يشعر، ولما شفي من الضرب بقي مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد، وكان الضرب في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٢٢١، وتوفي سنة ٢٤١.

١٢٦ ـ البويطي

يوسف بن يحيى البويطي صاحب الإمام الشافعي، كان الشافعي يُسأل عن الشيء فيحيل عليه فإذا أجاب قال: هو كما أجاب، وقال عنه الشافعي: هو لساني. حمل إلى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر وفي عنقه غل وفي رجليه قيد، وبين الغل

والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنتها أربعون رطلاً وأرادوه على القـول بخلق القرآن فامتنع وسات بالسجن في قيوده سنة ٢٣١.

١٢٧ ـ البخاري

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، أراد منه خالد بن أحمد الذهلي أن يأتيه في بيته يسمع أولاده فأبى وقال: «في بيته يؤتى الحكم»، فاتفق أن جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي من نيسابور بأن البخاري يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق، وكان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي وبين البخـاري في ذلك كـلام، وصنف البخاري في ذلك كتابه خلق أفعال العباد، فأراد الأمير أن يصرف الناس عن السماع من البخاري فلم يقبلوا، فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد، فخرج منها ودعا على خالد بن أحمد فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأن ينادى على خالد بن أحمد على أتان وزال ملكـه وسجن ببغداد حتى مات، فبـرح البخاري إلى بلد يقـال لها خـزنتك ـ فمـات سنة ٢٥٦. نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير.

١٢٨ ـ النسائي

أحمـد بن عليّ بن شعيب النسائي صـاحب السنن إمـام عصـره والمقـدم على أضرابه، رحل الآفاق وأخذ عن الحذاق وكـان ينسب إلى شيء من التشيع. قـالوا: دخل دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية فقال: ما يكفي معاوية أن يذهب رأساً برأس حتى يروى لـه فضائـل؟ فجعلوا يطعنـون فيه حتى أخـرج من الجامع، فسار إلى مكة فمر بالرملة فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه فضربوه في الجامع، فقال: أخرجوني إلى مكة فأخرجوه وهو عليل ـ فتوفي بمكة مقتولاً شهيـداً سنة ٣٠٣.

١٢٩ ـ أبو عمرو

عيسى الثقفي النحوي شيخ سيبويه صاحب كتاب الجامع الذي قيل إن سيبـويه أخذه وزاد عليه ما استفاده من الخليل ونسبه إليه، أودعه شخص وديعـة فنمى الخبر

إلى يوسف بن عمر أمير العراقين فكتب إلى نائبه بالبصرة يأمره أن يحمل إليه عيسى ابن عمرو مقيداً، فدعا به ودعا حداداً وأمره بتقييده، فلما قيده قال له: لا بأس عليك إنما أرادك لتعليم ولده، قال فما بال القيد إذاً؟ فلما وصل إليه سأله فأنكر، فأمر بضربه فضرب بالسياط. توفي سنة ١٤٩. كان كثير الاستعمال للغريب والتقعر في كلامه. وهو القائل: افرنقعوا عني. قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معد بن عدنان، فاستنشده أبو عمرو بيتاً فيه بدا بمعنى ظهر وقال له: كيف تسنده إلى جماعة الإناث؟ أتقول بدين أو بدان؟ فقال: بدين فقال: أخطأت ولو قال بدان لأخطأ أيضاً وإنما أراد أبو عمرو تغليطه، وإنما الصواب بدون من بدا يبدو إذا ظهر، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء معنى آخر. ذكرت هذا استطراداً لاشتماله على فائدة.

١٣٠ ـ محمد بن الزيات

أبو جعفر بن عبد الملك وزير المعتصم ثم ابنه هارون الواثق، ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده، وأشار القاضي أحمد بتولية أخيه المتوكل، وتم أمر المتوكل فحقد ذلك عليه مضموماً إلى حقده عليه القديم لأنه كان يغلظ عليه في حياة الواثق تقرباً إليه، وكان ابن الزيات قد صنع تنوراً من حديد في أيام وزارته وله مسامير محددة إلى داخله يعذب فيه الناس، وكان يقول: إذا استرحم الرحمة خور في الطبيعة، فلما اعتقله المتوكل أدخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد ومات في التنور فوجد قد كتب في التنور بفحمة:

من له عهد بنو ... ر يرشد الصب إليه
سهرت عيني ونامت ... عين من هنت عليه
رحم الله رحيماً ... دلت عينيّ عليه

توفي سنة ٢٣٣.

١٣١ ـ ابن الدهان

ناصح الدين أبو محمد سعد المعروف بابن الدهان النحوي البغدادي شارح كتاب الإيضاح والتكملة، وكتاب اللمع لابن جني، وكان يفضل على أبي محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري المعاصرين له. انتقل إلى الموصل قاصداً

جناب الوزير جمال الدين الأصفهاني المعروف بالجواد، وكانت كتبه ببغداد، واستولى الغرق في تلك السنة على البلد فغرقت كتبه، وكان خلف داره مدبغة ففاضت بالغرق إلى بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق، فأرسل من أحضرها له وكان قد أفنى عمره فيها فأشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح ما أمكنه فيها، فبخرها باللاذن ولازمها بالبخور إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلاً لاذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى - توفي سنة ٥٦٩.

١٣٢ ـ ابن عطاء

أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء أحد أئمة الصوفية، حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفضل وغيرهما، كانت له ختمة يتلوها ١٧ سنة يتدبرها مات ولم يكملها، أحضر في أمر الحلاج وقد كتب الحلاج اعتقاده فسأله الوزير حامد بن العباس عما قاله الحلاج فقال: من لا يقول بهذا فهو بلا اعتقاد، فقال له الوزير: ويحك تصوب مثل هذا الاعتقاد؟ فقال: ما لك ولهذا عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم، ما لك والكلام مع هؤلاء السادة. فأمر الوزير بضرب شدقيه ونزع خفيه وأن يضرب بهما رأسه، فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من منخريه وأمر بسجنه، فقيل له: أيها الوزير إن العامة تتشوش بهذا فحمل إلى منزله. قال ابن عطاء: اللهم اقتله أخبث قتلة، واقطع يديه ورجليه، فمات ابن عطاء بعد سبعة أيام سنة ٣٠٩ وقتل الحلاج قبله بعد أن ضرب نحواً من ألف سوط، وقطعت يداه ورجلاه ثم أحرقت جثته بالنار، ونصبت يداه ورجلاه ورأسه أياماً على الجسر، وكان ذلك لست بقين من ذي الحجة سنة ٣٠٩، ثم مات الوزير مثل ما دعا عليه ابن عطاء مقطوع اليدين والرجلين مقتولاً.

١٣٣ ـ ابن شنبوذ

المقري محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت أبو الحسين المقري المعروف بابن شنبوذ، روى عن أبي مسلم وبشر بن موسى وخلف، وكان يختار حروفاً أنكرها أهل زمانه عليه، وصنف أبو بكر بن الأنباري محمد بن القاسم الحافظ الذي كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة كتاباً في الرد عليه، كان أبو بكر المذكور من أعلم الناس

بالنحو والأدب، وكـان لا يأكـل إلا البقالي ولا يشـرب ماء إلّا قـريب العصر مـراعاة لحفظه، عقد لابن شنبوذ مجلس في دار الوزير أبي علي محمد بن مقلة وادعي عليه بالحروف التي كان يقرؤها فأقر بالبعض، فضربه الـوزير أبـو علي بالـدرة على رأسه واستتيب، فدعا على ابن مقلة فلم يفلح بعد ذلك ـ وتوفي سنة ٣٢٨.

١٣٤ ـ ابن مقلة

الوزير أحد المشاهير الكتاب محمد بن عليّ بن الحسين بن عبد الله أبـو علي المعروف بابن مقلة الوزير، كان له بستان كبير جداً وعليه جميعه شبكة من إبـريسم وفيـه من الطيـور والقماری والهـزار والطواويس شيء كثيـر، وفيه من الغـزلان وبقـر الوحش وحميره والنعام والأيل شيء كثيـر أيضاً. وولي الـوزارة لثلاثـة من الخلفاء: المقتدر، والقاهر، والراضي، وبني له داراً فجمع عند بنائها خلق كثير من المنجمين، فاتفقوا على أن تبنى في الوقت الفلاني، فأسس جدرانها بين العشاءين كما أشاروا، فما لبث بعد استتمامها إلّا يسيراً وقد أنشد فيه بعض الشعراء:

قـل لابن مقلة لا تكن عجـلاً ... واصبر فإنك في أضغاث أحلام
تبني بأنقاض دور الناس مجتهداً ... داراً ستنقض أيضـاً بعـد أيـام
ما زلت تختار سعداً تطلبن لهـا ... فلم يـوف بها من نحس بهـرام
إن القرآن وبطليموس ما اجتمعا ... في حال نقض ولا في حال إبرام

ثم عزل عن وزارته وأحرقت داره وانقلعت أشجاره وقطعت يده ثم قطع لسانه، وأغرم ألف ألف دينار، ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة، وكـان يستقي الماء بنفسه من بئر عميق يدلي الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه، وقاسى جهداً جهيداً حتى مات في الحبس سنة ٣٢٨. ومن نظمه وهو يبكي على يده:

إذا ما مات بعضك فابـك بعضـاً ... فـإن البعض من بعض قـريـب

والنكبات كثيرة لا تحصى، وفيما ذكرناه مقنع فإن الكتاب كله أنموذج ومسودة في بابه والله تعالى أعلم.

* . * . *

الفصل الثاني عشر في أشعار المفلوكين
(ومن في معناهم من مقاصد شتى وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة)

اعلم أن الفلاكة إذا استولت على شخص وسلبته القدرة على الأفعال، انتقل إلى الاسترواح والتنفس بالأقوال، وذلك لما أن في الكلام راحة وفرجاً وتنقيصاً من ألم الباطن، ولذلك قلما يطيق كتمان الأسرار إلّا الواحد الفذ، وكذلك أيضاً قلما يطيق الإنسان استدامة أقوال تخالف ما في باطنه بل لا بد له من فلتات مطابقة لما في باطنه لما أن النفس بطبعها تطمح إلى طلب الراحة والاستلذاذ بحسب المقدور، وإذا اتضح أن في الأقوال تنفساً وراحة ولذة وتنقيصاً من آلام الباطن وضحت الحكمة في انتصاب المفولكين خطباء وشعراء وحكماء، فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المالية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية، ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ويصوغون عنها أعذاراً وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة تنقيصاً من قبح صورتها، وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة في صورتها الشنيعة، ومرة يسابقون إلى ذكر نقائصهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها لأن النفوس تكره المعاد. ولذلك قيل في الأمثال: أقبح من معاد. وليكون ذلك أخف على نفوسهم لما أن الشخص لا يتأنف من نفسه ما يتأنفه من غيره ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره.

حكي أن الأخفش الصغير كان يحفظ الأهاجي التي هجاه بها ابن الرومي ويوردها في جملة ما يورده، والحكمة فيه ما ذكرته لا ما ذكره ابن خلكان في تاريخه من أنه كان يقول أنوّه بذكري بها فإن ذلك إن قاله الأخفش فقوله غطاء على المعنى الحقيقي، ولذلك أيضاً يذكرون الأسفار ويغرون بها مرة وينهون عنها أخرى فالإغراء

لما قدمته في الفصل الرابع والنهي يكون حيرة ودهشاً، ولذلك أيضاً يغـرون بتطلب المجد والثروة تارة ويأمرون بالقناعة أخرى قلقاً واضطراباً ويذمون الأيام ويتضجرون ويتململون ويستعتبون ويشعرون وهم لا يشعـرون، ويتفتنون وهم يفتنـون ويحسبون أنهم يحسنـون صنعاً إلاّ أنهم هم الخـاسرون، ويتلطفـون وهم يستثقلون ويعتذرون ولكن لا يعذرون، أم تسألهم خرجاً فهم من مغـرم مثقلون فإنّـا لله وإنّا إليـه راجعون والأغنيـاء عن ذلك كله بمعـزل وعن العناء فيـه بألف منـزل، قد أغنـاهم الفعل عن القول، والفضل عن الفضول، والأعذار عن الاعتذار، والإحسان عن صوغ اللسان، وأنا أورد إن شاء الله تعالى أحاسن ما يحضرني من أشعار المفلوكين ومن في معناهم في هذه المقاصـد كلها، وإنمـا قلت أو من في معناهم دفعـاً لسؤال مقدر تـوجيه أن المذكور في هذا الفصل من الشعر منه ما هو من كـلام الأماثـل والعظمـاء والنبلاء، فالجواب أنه وإن صدر عن عظيم أو نبيل فإنما ذكر بلسان المفلوكين، وشرحاً لحالهم ونيابة عنهم ورحمة عليهم أو عند عـارض فلاكة حقيقية عرضت للوجيه العظيم صيرته في حكم المفلوك بحسب تلك الحالة، أو عند عارض فلاكة حالية بحكم الوارد على القلة فإن الوارد كما هو مقرر في كتب الصوفيـة إذا ورد على القلب وشايعتـه النفس بـالاستحسان والاستحـلاء ولم يمانعـه أكسب حالاً، وإذا علمت الأحـوال المقتضية للأشعار الآتية والحامل عليها فهاكها غير ناس ولا غافل عما قررته في مقدمة الفصل العاشر فإنه محتاج إليها في هذا الفصل فمن ذلك قول القائل:

إلى الله أشكو جور دنياكم التي ... تغـر الفتى حتى يوارى بـرمسه
فتكسبـه إن أقبلت حسن غيـره ... وتسلبـه إن أدبرت حسن نفسـه

ومنـــه:

مـا تـطعمت لـذة العيش حتى ... صـرت للبيت والكتاب جليسـا
أي شيء أعـز عنـدي من العلـ ... ـم فمـا أبتغي سـواه أنـيسـا
إنمـا الـذل في مخـالـطة النـا ... س فدعهم وعش عزيـزاً رئيسا

ومنـه:

تلحى على البخل الشحيح بماله ... أفلا تكون بمـاء وجهك أبخـلا
أكـرم يديـك عن السؤال فإنمـا ... قـدر الحياة أقـل من أن تسـألا
ولقـد أضم إليّ فضـل قنـاعتي ... وأبيت مشتمـلاً بهمـا متـزمـلا

وأرى العدوّ على الخصاصة شارة　　　تصف الغنى فيخالني متموّلا
وإذا امرؤ أفنى الليالي حيرة　　　وأمانياً أفنيتهن توكلا

ومنه:

عجبت سعاد من ارتياحي للعلا　　　في العدم وهو يفلّ غرب الجامح
لا يغشني الإقتار عاراً إنني　　　رحب الذراع بكل خطب فادح
ولربما نهض المقل بعبئه　　　وحبا به المثرون حبو الرازح
مثل السماكين انتفاعك منهما　　　بالأعزل المدحوض فوق الرامح
ولئن خفيت عن الورى وفضائلي　　　كمد الحسود ونار غيظ الكاشح
فالنار في أشجارها مخبّأة　　　حتى يتاح لها يمين القادح

ومنه:

أهوى الخمول لكي أظل مرّفهاً　　　مما يعانيه بنو الأزمان
إن الرياح إذا عصفن لواقحا　　　تولي الأذية شامخ الأغصان

ومنه:

المرء يحظى ثم يعلو ذكره　　　حتى يزين بالذي لم يفعل
وترى الشقي إذا تكامل عيبه　　　يرمي ويبخل بالذي لم يعمل

ومنه:

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى　　　كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم حظ من الجهل والغنى　　　وصار لنا حظ من العلم والفقر

ومنه:

لا تحقرن أديباً راق رونقه　　　عن الفصاحة أما راح في شمل
فالسكر العسلي الحلو من قصب　　　والنرجس البابلي الغض من بصل

ومنه:

ينجد بي تارة ويتهم بي　　　ضر زمان بأهله جافي
حتى كأني قذاة مقلته　　　أو خبث فوق كاسه طافي

ومنه:

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى　　　وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال شتان حرّما　　　عليّ الغنى نفسي الأبية والدهر

إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه مواقف خير من وقوفي بها العسر

ومنه :

ولا تعدّن رزقاً ما ظفرت به إلّا إذا دار بين الحلق والحنك

ومنه :

لا يؤيسنك من مجد تباعده فإن للمجد تدريجاً وترتيبا
إن القناة التي أبصرت رفعتها تنمو وتحدث أنبوباً فأنبوبا

ومنه :

والحر من حذر الهوا ن يحاذر الأمر الجسيما
والعاجز المأيوف أقـ ـعد ما يكون إذا أقيما

ومنه :

المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولئن يعادي عاقلاً خير له من أن يكون له صديق أحمق
وإن امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يجر حبل يفرق
لا ألفينك ثاوياً في غربة إن الغريب بكل نبل يرشق
ما الناس إلّا عاملان فعامل قد مات من عطش وآخر يغرق
والناس في طلب المعاش وإنما بالجد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون على وزان عقولهم ألفيت أكثر من ترى يتصدق
لو سار ألف مدجج في حاجة لم يقضها إلّا الذي يترفق

هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس، وقوله: يتصدق هو ببناء المجهول حتى يصح المعنى المراد، وهو أن الغالب على الناس قلة العقل والخفة، وأصله يتصدق عليه فحذف عليه ولو قرىء ببناء المعلوم لانعكس المعنى وكان معناه أن العقلاء هم الأكثر وليس بصحيح لا دراية ولا رواية، وهذا الرجل اتهمه المهدي بالزندقة فأمر بحمله إليه فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثباته فأمر بإطلاقه، فلما ولى ردّه وقال: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه

فقال: بلى، وأنت لا تترك أخلاقك فأمر به فقتل سنة ١٦٧، فانظر إلى الفلاكة

قال حكمة فكانت سبباً في قتله. ومثله قول عمارة اليمني الملقب نجم الدين الشاعر:

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته ... كما يقول الورى لحماً على وضم
وكان أول هذا الدين من رجل ... سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

أراد إظهار معنى بديع مبتكر فكان سبباً في قتله في أحد الأقوال في سنة ٥٦٩ - وكنت هممت أن أضع فصلاً في الكلمات التي كانت سبباً للحوق ضرر عظيم لأصحابها كهاتين الحكايتين واسميها بالفلاكة اللفظية لتكون الفلاكة ثلاثة أنواع مالية ومعنوية ولفظية، ثم بدا لي في ذلك وخشيت أن يصير الكتاب أدبياً لا علمياً، ولنرجع إلى مقصود الفصل ومنه:

ليس الخمول بعار ... على امرىء ذي جلال
فليلة القدر تخفى ... وتلك خير الليالي

ومنه:

يا هذه إن رحت في ... شمل فما في ذاك عار
هذي المدام هي الحيا ... ة قميصها خرق وقار

ومنه:

وليس قبح المكان مما ... يزرى به منصبي وديني
فالشمس علوية ومع ذا ... تغرب في حمأة وطين

ومنه:

احتل لحقدك فاللبيـ ... ـب بلطفه يستل ثاره
امضى الحديد أرقه ... والماء يثقب في الحجاره
والهجو بيت منه لا ... يطفي طويل المدح ناره
يخفي الكثير من الحلا ... وة في القليل من المراره

ومنه:

ولا غرو أن يبلى الشريف بناقص ... فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنه:

وإني واعدادي لدهري محمداً ... كملتمس إطفاء نار بنافخ

ومنـــه:

فـإن تكن الـدنيـا أنـالتـك ثـروة	فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقـد كشف الإثراء عنـك خـلائقـاً	من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ومنـــه:

حيـائي حـافظ لي مـاء وجهي	ورفقي في مـطالبـتي رفـيقـي
ولـو أني سمحت ببـذل وجهي	لكنت إلى الغنى سهـل طريقي

ومنـــه:

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحبهـا	فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبـوا
يعـظمون أخـا الدنيـا فـإن وثبت	عليـه يومـاً بمـا لا يشتهي وثبـوا

ومنـــه:

قالت وقد انتضت سيوف اللحظ	والـــدر ممـــازح لـــذاك الـلفظ
ذا حـظك مـا أنقصـك قلت لهـا	لو شئت لمـــا كنت قليـــل الحظ

ومنـــه:

من منصفي من معشـر	كـشـروا عليّ وكـبـروا
صـادقتهم وأرى الخـرو	ج من الصـداقـة يعسـر
كالخط يسهل في الطرو	س ومـحـوه يـتـعـذر
ومتى أردت كـشـطتـه	لـكـن ذاك يـؤثـر

ومنـــه:

إذا فات الفتى شيئان أضحى	بعيـداً من ممـازجـة القلـوب
جمـال الوجـه أو مـال عـظيم	يـزين في حضـور أو مغيـب
فكثر المال يشفع في المثاوي	وحسن الوجه يشفع في الذنوب

ومنـــه:

إن الغني الـذي تـرضى معيشتـه	لا من يـظل على مـا فـات مكتئبـا
لا تحقـرن من الأيـام محتقـراً	كل امرىء سوف يجزى بالذي كسبا
قـد يحقر المـرء ما يهـوى فيتركـه	حتى يكـون إلى تـوريـطه سببـا
إن العـدوّ وإن أبـدى مكـاشـرة	إذا رأى منـك يـومـاً فـرصـة وثبـا
إذا وتـرت امـرأ فـاحـذر مغبتـه	من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

ومنـــه :

أتعبت نفسـك بيـن ذلـة كـادح — طلب الحيـاة وبين حـرص مؤمـل
ونشرت دهـرك لا خـلاعـة مـاجن — حصلت فيـه ولا وقـار مبـجـل
وأضعت حظ النفس في الدنيا وفي الـ — أخرى ورحت عن الجميع بمعـزل

ومنـــه :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها — أهل الفضائـل محقورون بينهم
قـد أنزلـونـا لأنـا غيـر جنسهم — منازل الوحش في الإهمال عندهم
فليتنـا لـو قـدرنـا أن نعـرّفهم — مقـدارهم عندنـا أو لو دَرَوْهُ هم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى — وعنـدنا المتعبـان العلم والعدم

ومنـــه :

إذا كان غير الله في عـدة الفتى — أتتـه الرزايـا من وجوه الفـوائد

ومنـــه :

إذا لـم يكن عون من الله للفتى — فـأكثر مـا يجني عليـه اجتهـاده

ومنـــه :

إذا شئت أن تحيـا سعيـداً فـلا تكن — على حـالـة إلاّ رضيت بـدونهـا
ومن يطلب الغالي من العيش لم يزل — حـزينـاً على الـدنيـا رهين غبـونهـا

ومنـــه :

إني رأيت الدهر في حكمـه — يمنح حظ العاقـل الجاهـلا
ومـا أرانـي نـائـلاً ثـروة — كـأنـه يحسبنـي عـاقـلا

ومنـــه :

إذا وجـد الشيـخ من نفسـه — نشـاطاً فـذلـك مـوت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج — لـه لهب قبـل أن ينـطفي

ومنـــه :

انفض يديك من الأنـام فكلهم — شحـاً يحل وأنت عجـزاً تعقـد

ومنـــه :

انفض يـديـك من الـزمـان وخيـره — واحـذر بـنـيـه تـفـز بقـلة ضيـره
ولقـد صفـوت فمـا وجـدت مصـافيـاً — فـي الله أصـحـبـه ولا فـي غـيـره

ومنـــه :

وأخ لــي تـكــدرت   بـعــد صفــو مـشــاربـه
صــاحبي حين لا يـرى   في الـورى من يصـاحبـه
وإذا مــا حــظي بــه   صــدّ وازورّ جــانـبـه

ومنـــه :

إذا لم يكن صدر المجالس سيداً   فلا خير فيمن صدّرته المجالس
وكم قـائل ما لي رأيتك راجـلاً   فقلت لـه من أجل أنـك فارس

ومنـه :

وأخ إن رام مني حـاجـة   كان بالإنجـاح مني واثقا
وإذا ما رمت منه حـاجة   كان بالـرد بصيراً حـاذقا
يعمل الحيلة في الرد لها   قبل أن أفرغ منها ناطقـا

ومنـــه :

إذا مـا مدحت البـاخلين فإنمـا   تذكرهم ما في سواهم من الفضل
وتهـدي لهم غماً كثيـراً وحسرة   فإن منعوا منك النوال فبـالعدل

ومنـــه :

وإذا المسافر آب مثلي مفلساً   صفر اليدين من الذي رجاه
وخلا من الشيء الذي يهديه لل   إخـوان عنـد لقائهـم إيـاه
لم يفـرحوا بقـدومـه وتثقلوا   بــوروده وتكــرهــوا لقيــاه
وإذا أتـاهم قـادمـاً بهـديــة   كان السرور بقـدر ما أهـداه

ومنـــه :

لو كنت أجهل ما علمت لسرني   جهلي كما قد سـاءني ما أعلم
فـالصعو يرتـع في الرياض وإنما   حبس الهـزار لأنــه يـتـكـلم

ومنــه :

إن قدّم الصاحب ذا ثروة   وعـاق ذا فقـر وإفـلاس
فـالله لم يـدع إلى بيتـه   إلاّ المياسير من النـاس

ومنـه :

لا يدرك المجد من لا يركب الخطرا   ولا ينـال العلا من قـدم الحـذرا
ومن أراد العـلا صفـواً بـلا كـدر   قضى ولـم يقض من إدراكه وطرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

ومنــه :

وقائلـة مـا بـال مثلك خـامــلاً | أأنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز
فقلت لهـا ذنبي إلى القـوم أنني | لما لم يحوزوه من المجد حائـز
وما فاتني شيء سوى الحظ وحده | وأما المعالي فهي عنـدي غـرائـز

ومنــه :

من أخمل النفس أحياها وروحها | ولم يبت طـاوياً فيهـا على ضجر
إن الرياح إذا اشتـدت عواصفهـا | فليس ترمي سوى العالي من الشجر

ومنــه :

ألا مـوت يبـاع فـأشتـريــه | فهـذا العيش ما لا خيـر فيه
ألا موت لذيذ الطعم يـأتي | يخلصني من الموت الكريه
إذا أبصـرت قبراً من بعيـد | وددت لـو أنّني فيمـا يليــه

ومنـه :

ولو أنّي استزدتك فوق ما بي | من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياة | بعيش مثل عيشي لم يريدوا

ومنــه :

قـالوا أقمت ومـا رزقت وإنما | بالسير يكتسب اللبيب ويرزق
فـأجبتهم ما كـل سيـر نـافعـاً | الحظ ينفع لا الرحيل المقلق
كم سفرة نفعت وأخرى مثلها | ضرت ويكتدح الحريص ويخفق
كالبدر يكتسب الكمال بسيره | وبـه إذا حرم السعـادة يمحق

ومنـــه :

ســافر إذا حـاولت قدراً | سار الهلال فصـار بدرا
والماء يكسب ما جـرى | طيباً ويخبث ما استقـرا
وبـنقـلة الـدرر النـفيـ | ـسة بدلت بالبحر نحرا

ومنــه :

قوض ركابـك عن أرض تهان بهـا | وجــانب الـذل إن الـــذل يجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة | فالمندل الرطب في أوطانـه حطب

ومنــه :

إذا مــا نبت بـالحـــر دار يـودّهــا | ولم يرتحل عنها فليس بذي حـزم

وهبه بها صبا ألم يدر أنه   سيزعجه عنها الحمام على رغم
ولم تكن الدنيا تضيق على فتى   يرى الموت خيراً من مقام على هضم

ومنه :

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع   فقلت ولكن موضع الرزق ضيق
إذا لم يكن في الأرض حر يعينني   ولم يك لي كسب فمن أين أرزق

ومنه :

قالوا اغترب عن بلاد كنت تألفها   إن ضاق رزق تجد في الأرض مقترحا
قلت انظروا الريق في الأفواه مختزناً   عذباً فإن بان عنها صار مطرحا

ومنه :

عوّد ركابك كل يوم منزلاً   وتنقلن كي لا تمل وتضجرا
فالماء يعذب ما جرى وتلاطمت   أمواجه فإذا أقام تغيرا

ومنه :

إذا أنا لم أجد رزقاً حلالاً   ولم آكل حراماً مت جوعا

ومنه :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري   حبسي وأي مهند لا يغمد

ومنه :

لم ينصبوا بالشادناج صبيحة الـ   اثنين مبسوقاً ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم   شرفاً وملء صدورهم تبجيلا
ما ضره أن بز عنه لباسه   فالسيف أهول ما يرى مسلولا

ومنه :

لا ينبغي للضيف إن كان ذا   حزم وتدبير وطبع لطيف
أن يتعدى أبداً طوره   ولا يرى إلّا بحكم المضيف
فالأمر للإنسان في بيته   إن شاء أن ينصف أو أن يحيف
وإنما ينقض أحكامه   عليه ذو جهل وعقل سخيف

ومنه :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقاً   على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها   عليك وإرفاقاً إلى زمن اليسر

فإن قبلت كنت الغني وإن أبت | فكل منوع بعدها واسع العذر

ومنه:

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً | فكن عبداً لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعاً | كما تختار فاتركها جميعا
هما سببان من ملك ونسك | ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء | سوى هذين عاش بها وضيعا

ومنه:

يا أيها العالم لا تشتكي | فالحذق محسوب من الرزق
العلم لا يسلبه أهله | والمال مسلوب من الخلق

ومنه:

المال أشرف ما اقتنيت فلا تكن | سمحاً به وتأن في تفصيله
ما صنف الناس العلوم بأسرها | إلّا ليحتالوا على تفضيله

ومنه:

أحمد الله كم أجوّد في الدهـ | ـر مقالاً وما يفيد المقال
كلمي في الأنام سحر ولكن | أنا والسحر باطل بطال

ومنه:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله | وليس لهم حتى النشور نشور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم | وأجسادهم قبل القبور قبور

ومنه:

من ظن أن الغنى بالمال يجمعه | فاعلم بأن غناه فقره أبدا
فاستغن بالعلم والتقوى وكن رجلاً | لا ترتجي غير رزاق الورى أحدا

ومنه:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل | عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه | ويسومها طلب المحال فتطمع

ومنه:

إني تركت لذي الورى دنياهم | وظللت أنتظر الممات وأرقب
وقطعت عن نفسي المطامع ليس لي | ولد يموت ولا عقار يخرب

ومنـــه :

يقولون لي فيك انقباص وإنمـا ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عـزة النفس أكرمـا
ومـا كل بـرق لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت ... أقلب طـرفي إثـره متنـدمـا
ولكنـه إن جـاء عفـواً قبلتـه ... وإن مـال لم أتبعه لـولا وربمـا
وأقبض خطوي عن أمور كثيـرة ... إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً ... وأن أتلقى بـالمـديـح مـذممـا
ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعـظما
ولكن أدالـوه فـهـان ودنسـوا ... محيـاه بالأطمـاع حتى تجهَّمَا
أأشقى بـه غـرسـاً وأجنيـه ذلـة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ومنـــه :

لا يحـطن رتبتي سـوء حـالي ... آية الحسن في الجفون السقام
أنـا كـالنـار أطفأ القـطر منهـا ... ولهـا بعـد نـفخـة اغـتـلام

ومنـــه :

أصبحت مثل السيف أبلى غمده ... طـول اعتلاق نجاده بـالمنكب
أن يعتليه صدا فكم من صفحة ... مصقولة للماء تـحت الطحـلب

ومنـــه :

وأنت السيف إن تعـدم حليـا ... فلن تعـدم فـرنـدك والغـرار
وربّ مـطوّق بـالتبـر يكبـو ... بصـاحبـه وللرهـج اعتبـار

* . * . *

الفصل الثالث عشر

(في وصايا يستضاء بها في ظلمات الفلاكة)

وبهذا الفصل نختم الكتاب إن شاء الله

اعلم يا أخي في الوفا وأخوة المصطفى خصوصاً المفلوك مثلي أن في الكمالات النفسانية لذة تزيد على اللذات الجسمانية، فلا تستصغرن نعمة الله فيها متى زويت عنك الدنيا، واستحضر قوله ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا لمن يحبه ولمن لا يحبه، ولا يعطي الدين إلّا لمن يحبه، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورّثوا العلم فمن أخذ منه فقد أخذ بحظ وافر». وانظر كيف يكون استجلاء لطائف العلوم شاغلاً عن الأكل والوقاع أفتراه يكون دونها لذة وهو شاغل عنها؟! وعليك من العلوم بالكتاب والسنّة، والتمتع بما فيهما من النكات واللطائف، واستمد منهما برد اليقين وثلج الصدور، ولا تقنع بالعلوم العقلية فإنها ملساء مزلة الأقدام، وأصحابها يضطربون فيها اضطراب الأرشية. هذا الإمام فخر الدين على جلالته وإمامته بصحح في بعض كتب ما يضعفه في الآخر، وأبلغ من ذلك أن ابن الراوندي سامحه الله صنف رسائل في خلق الأعمال وفي قدم العالم وغيرهما، ثم صنف هو نفسه رسائل في رد ذلك كما ذكره صاحب الفهرست، ولا تجمع لنفسك بين قبح الظاهر وهو الفقر وقبح الباطن وهو الجهل، وسع الناس بأخلاقك ومعارفك إن لم تسعهم بمالك ومعروفك، واجتنب الإساءة إليهم إن عجزت عن الإحسان لهم، وخذهم بالرجاء لأنه أيسر ولا تأخذهم بالخوف وإن كانوا به أطوع لأنه أخطر، وارض بميسورهم وعظم حقيرهم فلا يحصل للنفوس مقصودها إلّا خالقها فلا تطلب المقصود إلّا منه، واجعل باطنك وحده لله، وكن شديد الاستهانة بأمور الدنيا ضراً ونفعاً، عطاءً ومنعاً، حصولاً وفواتاً، سلامة وآفاتاً [1]، وانظر الأصلح لنفسك من ذلك قبل وقوعه وبعده فتوخه واجتهد فيه ولا تكن وكلاً بل متحركاً كيساً، ورقع خرق عجزك وفلاكتك بحيلتك ومصابرتك والتعرض

(١) كذا بالأصل، وصوابه «آفاتٍ» لأنه جمع مؤنث سالم، ولعلّه نصبه بالفتح بسبب السجع.

لتنفيسات الدهر والوثوب عند الفرصة ولا تيأس من روح الله. قال ﷺ: «إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها». قال تعالى: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون﴾[1] قال الشاعر:

والعاجزان الغالبان معاقب لا ينتهي ومعاتب لا يخجل

وقال:

ثب على الفرصة في موضعها فهي لا تبقى ولا تستكسب

واقطع بأن ذرة من حظ خير من قنطار عقل، وأن جزءاً واحداً من المال خير من أجزاء كثيرة من الكمالات النفسانية، ولله درّ من سمى المال كمال الكمالات، وتحقق أن المعاصي كالسموم يضر قليلها وكثيرها مع الاستخفاف بها ومع تعظيم ارتكابها وجليها وخفيها، فلا تغتر بالتستر والحيلة فإن لله عيوناً من الملكوت ناظرة إليك، وإن للطاعات عبقاً وشذا تفوح على أهلها وإن كتموها وللمعاصي نتناً وذفراً تفوح على أهلها وإن أخفوها، وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس، وخذ الناس إلى أغراضك بمصالحهم تحقيقاً أو توهيماً فإن النفوس تنخدع بالباطل كما تنخدع بالحق، ولا تأخذهم بغرضك المحض فقلما يساعفونك به إلا عوضاً عما سلفتهم من غرض لهم سابق، وكن تواباً رجاعاً أواباً إلى الله عظيم الالتجاء إليه والاستعانة بقوّته وباهر قدرته متملقاً له خاضعاً لجلاله، وكن كثير الدعاء والإلغاظ بأسمائه تعالى وله الحمد فإن الدعاء نسبته إلى استجلاب المطالب كنسبة الفكر إلى استدعاء المطلوب العلمي. قال ﷺ: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام». قال تعالى: ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾[2]، وإياك إياك من التعويل على واحد بخصوصه من البشر وإلقاء الشراشر عليه، فإن من ألقى شراشره على غير الله وكله وما اختاره لنفسه، وأنهاك أنهاك عن التوقيف على بواطنك وخفاياك، وآمرك آمرك بسد طريق العلم بذلك جهدك وتكثيف حجابه ما أمكن، وكن مع الناس بلسانك وظاهرك من كمالاتهم الدنيوية التي يعتقدونها كمالاً فإن الدنيا قد صارت مخارق بلا حقائق وثم أمور لا يمكن التصريح بها ولا تتم بالتلقين، وأنا أسأل الله أن يوفقك لها ويوقفك على حقيقتها.

هذا آخر ما تيسر لي كتابته في هذا الغرض مما سهل مما حضر وفي النفس من

(١) سورة: يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة: الفرقان، الآية: ٧٧.

معاودته وبسط القول فيه فإن هذا الكتاب إنما وضعته مسودة وأنموذجاً وبرنامجاً في هذا المطلوب، وفتحاً لباب عسى أن يلج فيه من حركه الله لذلك، ولم أدخر فيه مما حضرني إلّا ما خفت على الكتاب من كساده به لغموضه وكونه من الحكمة الضرورية، أو من مشكلات غيرها من العلوم فيعسر فهمه أو ينتقده من لا يقف على حقيقة معناه، أو لكونه تاريخاً محضاً فيصير الكتاب به أدبياً لا علمياً، ولم تتسع المادة بمجانس لما أوردته أزيد مما ذكرته لأني زحمت به بالخلخلة ولززت به لزّاً بين عوائقي النفسانية وشواغلي البدنية مع قلة الكتب وعدمها، وما أحق هذا المقام بقول القائل:

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل
يشمر للجّ عن ساقه ويغمره الموج في الساحل

وأنا أستغفر الله تعالى وأتوب إليه مما لعله فيه مما هو من قبيل الشقشقة والطنطنة، أو من قبيل التمويه والسفسطة، أو من حكم لم يصادف الحق أو قول لعله لم يوافق مرضاته سبحانه وله الحمد، أو من نية لعلها لم تخلص لله، أو مقصد مزج بغير إرشاد شرعي، أو من تعليل الأمور بالمقاصد الدنية الدنيوية، وأستقيله العثرة في ذلك كله وأستوهبه المعذرة وأستمنحه المغفرة وأبرأ إليه من ذلك كله لا إله إلّا هو ولا غافر سواه.

اللهم يا رحمن يا رحيم يا واسع يا عظيم يا ذا الفضل العميم والمنّ الجسيم، يا معطياً قبل السؤال وعالماً بالحال، أسألك بأسمائك كلها وصفاتك أجمعها وبكل ما إذا دعيت به أجبت أن تكشف عنا ضر الفلاكة والإهمال والحرمان، وأن تصرفنا عن مواقع الشر والخذلان، وأن تحفظ ألسنتنا وقلوبنا من الشيطان، وأن تكلأنا بالتوفيق وتؤيدنا بالتكلان يا رحيم يا رحمن لا حول ولا قوة إلّا بك يا عليّ يا عظيم. اللهم إني أشكو إليك ضعف حيلتي وقلة قوتي وهواني على الناس رب المستضعفين وربي، إلى من تكلني إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي لكن رحمتك أوسع لي. اللهم اقبل معاذيري وتجاوز عن تقصيري، ولا تتركني حقيراً ولا تسلط عليّ تغييرا، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً. اللهم قد رفعت يديّ إليك فلا تردهما صفراً. اللهم ضع فيهما من خيرك وبركتك:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

فـاليوم حـاجتنـا إليـك وإنمـا　　　يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

اللهم انقطع الرجاء إلّا منك وحصل اليأس إلّا من رحمتك، لا تعكس ظناً قـد عول على فضلك، لا تخيب أملاً طال تعلقه بك، أعتق عنقاً مدّ إليك من رق غيرك، فك أسيراً لا يملك فكـاكه إلّا أنت. اللهم ليس على عـطائك عـائق ولا يعجزك شيء فلك القدرة الكاملة والرحمة الواسعة والحكمة البالغة وكلتا يـديك سخـاء. ولا ينقص فيضـك العطاء وتستحي من تخييب آمليـك غايـة الحيـاء وعلمـك قـد أحـاط بمـا في الأرض والسماء وبما في الظواهر والضمائر من الجلاء والخفاء، انظر إلينا منـك بنظرة رحيمة، ربنا مسنا ضر نفوسنا وإن لم تغفر لنا وتـرحمنا لنكـونن من الخاسـرين، لا إله إلّا أنت سبحـانك إني كنت من الـظالمين سمع الله نـظر الله سبحـان الله آمين وسـلام على المـرسلين والحمـد لله رب العـالمين وصلى الله على سيـدنـا محمـد وعلى آلـه وصحبه وسلم.

* . * . *

فهــرس المحتويــات

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ - تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس : ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠